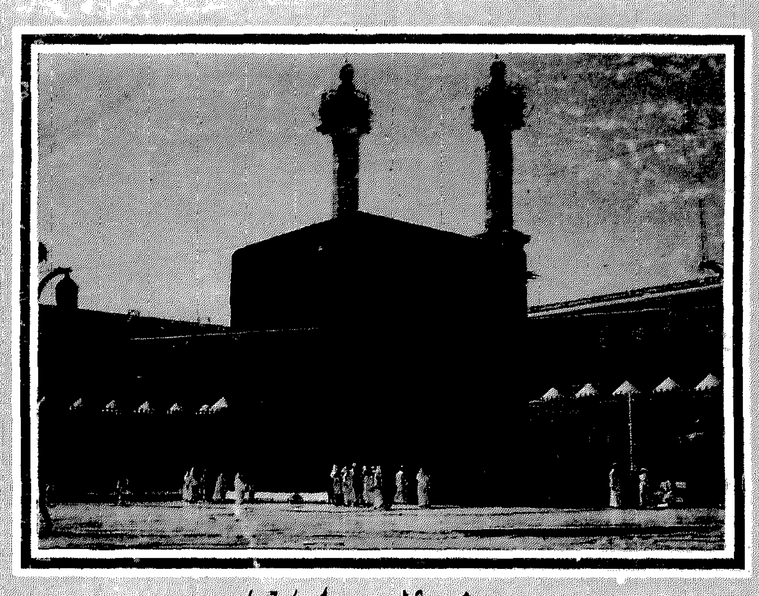


في رياض السيرة النبوية

العهد المكى

بقلم

الدكتور / أحمد عمر هاشم

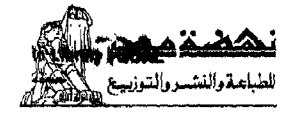






بقلم

الدكتور / أحمد عمر هاشم



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد «لله» رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ؛ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد ..

فأقدِّم هذا الكتاب إلى العالَمِ الإسلامى ، لأُضيفَ به إلى المكتبة الإسلامية بعض الواجب علينا تجاه أشرف سيرة فى الوجود وهى سيرة سيدنا محمد بن عبد الله (ﷺ) مبتدئا بالعهد المكى . مدعِّمًا ما أقدِّمه بالأدلة من كتاب «الله» تعالى ، وسُنَّة رسوله (ﷺ) ، حتى يتَّضح للقارئ المثل الأعلى الذى يجب عليه أن يقتدى به ، فقد أمرنا «الله» تعالى أن نقتدى برسوله (ﷺ) وجعل لنا فيه الأسوة الحسنة :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[1]

وقد ختم «الله» تعالى به جميع الأنبياء والمرسلين ، وختم بالكتاب الذى أنزل عليه – وهو القرآن الكريم – جميع الكتب السماوية ، وبشريعته جميع الشرائع ، وبعثه إلى الناس كافة ، وجعل الرحمة جوهر رسالته ، حيث قال سبحانه وتعالى :

---

(١) الأحزاب : ٢١ .

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾[1]

أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب كل قارئ ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المؤلف

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

خصائص ومميزات السيرة النبوية ومصادرها

للسيرة النبوية خصائص ومميزات ، أبرزها وأهمها : أنها تعطى صورة متجسدة للحياة الإسلامية متمثلة فى أشرف خلق «الله» وهو سيدنا محمد (ﷺ) الذى أمرنا «الله» تعالى أن نقتدى به فى قوله جل شأنه :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١ ﴾(١)

فإذا درس الإنسان أحكام الإسلام وقواعده الفقهية ، ومسائل العقيدة وكتاب ربه تعالى وسُنَّة نبيِّه (ﷺ) وغير ذلك من العلوم والمعارف ، والقواعد والمبادىء ، والعبادات والمعاملات ، إذا درس كل ذلك ، فهو بحاجة إلى تطبيق ما درسه عمليًا ، وتجسيد كل ذلك حياة وحركة ، وتطبيقا وسلوكا ، فيرى تلك القواعد والمبادىء والأحكام والأخلاق واقعًا ملموسًا محسوسًا متمثّلاً فى الرعيل الأول بعد أن درسه وقرأه مبادىء ودروسًا فى الذهن .

● والسيرة النبوية العطرة تطلع قارئها على عظمة الرسول الكريم (ﷺ) الذى أيّده «الله» تعالى بالوحى والمعجزات ، وبالآيات البينات ، فلم يكن (ﷺ) مجرد قائد عبقرى أو مجرد بشر عظيم

---

(١) الأحزاب : ٢١ .

كسائر العظماء ، وإنما كان (ﷺ) بشرًا يُوحَى إليه ، كما قال «الله» تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾(١) ..

بل إن «الله» تعالى وصفه بصفتين هما من صفات «الله» تعالى وأسمائه ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾(٢) .

- وفى السيرة أيضًا زادٌ رُوحىٌّ وعِلْمىٌّ يُيَسِّر المراد من الكتاب العزيز بتوضيح المواقع التاريخية والأحداث والمواقف التى عايشها رسول الله (ﷺ) .

- كما أنها تضيف إلى المعارف الإنسانية والعلوم الإسلامية ، والثقافة الدينية أعظم رصيد فى كل مناحى الحياة الدينية والاجتماعية والأخلاقية والتربوية والسياسية ، وهذا كله يثرى التراث الدينى والمعارف لدى الدعاة والمصلحين والمربين ، وفى رياض السيرة النبوية ، يرى ولىُّ الأمر ، والحاكم القدوة المثلى فى الحكم وسياسة الأمور ، ويرى الداعية الإسلامى المنهج الأمثل فى الدعوة إلى «الله»

---

(١) الكهف : ١١٠ . (٢) التوبة : ١٢٨ .

بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويرى الزوج الحياة الزوجية المثلى ، ويرى الأب الدقة فى تحقيق الواجبات والحقوق والمواءمة بين العاطفة الجياشة والحزم فى تربية الأبناء ، ويرى القائد العسكرى الثقافة العسكرية والقيادة الماهرة ، وهكذا فى كل مجال من مجالات الحياة تشرق السيرة النبوية بالمثاليات الرائدة والفريدة .

ومن أجل هذا كله وعى سلفنا قيمة السيرة النبوية فى بناء جيل صالح عظيم فكانوا يتدارسونها ، بل ويحفظونها ، ويلقنونها لأبنائهم وأطفالهم كما يحفظونهم القرآن الكريم . عن زين العابدين على بن الحسن (رضى الله عنهما) قال : **كنا نعلم مغازى رسول الله (ﷺ) كما نعلم السورةَ من القرآن .**

ويقول الإمام الزهرى : **فى علم السيرة علم الدنيا والآخرة ،** وروى إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص (رضى الله عنه) قال : **كان أبى يعلّمنا المغازى والسرايا ويقول : يا بَنِيّ هذه شرف آبائكم فلا تضيّعوا ذكرها**[1] .

وأما عن مصادر السيرة النبوية أو مراجع أحداثها ووقائعها فأول تلك المصادر : **كتاب «الله» تعالى ،** فقد جاءت مشاهد كثيرة وغزوات وأحداث وغير ذلك على سبيل الإجمال .

---

(١) السيرة الحلبية ، شرح المواهب ، السيرة النبوية د . محمد أبو شهبة .

وثانى هذه المصادر : **السُّنَّة النبوية المطهرة** ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وقد دُوِّنت بأدق طرق النقل والتدوين .

ثم يلى ذلك : **المراجع الأصيلة فى السيرة النبوية** منذ عهد التابعين الذين تلقفوا سيرة رسول الله (ﷺ) بعناية فائقة مثل : عروة بن الزبير وابن شهاب الزهرى ، ثم ظهر من المصنفين فى السيرة محمد ابن إسحاق المتوفى عام ١٥٢ هـ ، ثم ظهرت طبقة أخرى مثل الواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، ومحمد بن سعد – صاحب الطبقات الكبرى – المتوفى سنة ٢٣٠ هـ ، ثم ابن هشام ، ثم كثر التصنيف بعد ذلك . ويجدر بنا أن نذكر مقالة الفيلسوف الإنجليزى الذى شهد بعظمة هذا الرسول (ﷺ) ، وكيف استضاءت الدنيا به ، وارتقى أتباعه وعزُّوا بفضل ما جاءهم به من دين .. قال فى كتاب الأبطال : « قوم يضربون فى الصحراء عدة قرون لا يؤبه لهم ، فلما جاءهم النبىُّ العربىُّ أصبحوا قِبْلَةَ الأنظارِ فى العلوم والفرقان ، وكثروا بعد قلة ، وعزُّوا بعد ذلة ، ولم يمض قرن حتى استضاءت أطراف الأرض بعقولهم وعلومهم » .

عموم الرسالة وخلودها

لقد أرسل «الله» تعالى خاتم الأنبياء والمرسلين ، بالرسالة العامة الخالدة ، وختم به جميع رسله وأنبيائه ، قال «الله» تعالى :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾(١)

وقال (ﷺ) : **مَثَلِي وَمَثَلُ الأنبياءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وأَجْمَلَهُ إلاَّ مَوْضِعَ لَبنةٍ مِنْ زَواياهُ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفونَ بهِ ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ ، ويَقُولُونَ : هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِه اللَّبِنَة ؟ فَأَنا اللَّبِنَةُ وأَنَا خَاتَمُ النَّبيينَ »**

(مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) .

ومعلوم أن دعوة الأنبياء جميعا واحدة فيما يتصل بجانب العقيدة ؛ لأنهم جميعا ، يدعون إلى عبادة إلهٍ واحدٍ ، لا شريك له . فجميع الرسل والأنبياء ، يدعون إلى توحيد « الله » تعالى ، وتنزيهه عما لا يليق بذاته العلية ، وكل الأنبياء يتفقون فى العقيدة من لدن آدم (عليه السلام) إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (ﷺ) ، وكانوا

---

(١) الأحزاب : ٤٠ .

جميعًا يسيرون وفق بعثة «الله» لهم ، ووحيه ، فيصدق اللاحق منهم السابق ، ويبشر السابق ببعثة اللاحق .

وهكذا اتفقوا جميعا فى أصول العقيدة ، توحيدًا «لله» وتنزيهًا له ، وإيمانا باليوم الآخر ، وما فيه من حساب وثواب أو عقاب ، وجنة أو نار .. إلى غير ذلك من الأمور .. وما شرعه من الدين للرسالة الخاتمة هو ما وصَّى به الأنبياء السابقين كما قال تعالى :

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾[1]

وإذا كانت دعوات الرسل السابقين حتى خاتمهم سيدنا محمد (ﷺ) كلها قد اتحدت واتفقت ، فى جانب العقيدة .. فإنها بالنسبة إلى جانب التشريع وبيان الأحكام ، قد اختلفت ، كَمًّا وكيفًا ، ما بين كل نبىٍّ وآخر ، فإن التشريع يستهدف صالح الدنيا والآخرة ، وللتطور واختلاف الأمم والشعوب وتغيير الحياة أكبر الأثر . فلابد أن تتوخَّى كل شريعة ما يوائم أمتها وما يتفق مع زمنها وأهلها ، لا سيما وأن كل شريعة من الشرائع السابقة كانت خاصة ، فكانت الأحكام التشريعية لها خاصة ، فلم تأخذ صفة العموم ، لأن الشريعة

---

(١) الشورى : ١٣ .

السابقة لم تكن عامة للناس .. فموسى (عليه السلام)، بعثه «الله» تعالى إلى بنى إسرائيل ، وكانت شريعتهم شديدة قائمة على العزائم ، فلما جاء عيسى (عليه السلام) جاء بشريعة أيسر ، قال «الله» تعالى على لسان عيسى (عليه السلام) — مخاطبا بنى إسرائيل :

﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١) ﴾

وكانت كل شريعة تنسخ ما قبلها إلاَّ إذا ورد تأييد من الشريعة المتأخرة لبعض ما فى السابقة ، أو أن يسكت التشريع اللاحق .

---

(١) آل عمران : ٤٩ — ٥١ .

هذا فيما يتصل بجانب التشريعات أما العقيدة فهى واحدة وأما الدين فواحد لا اختلاف فيه :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾(١)

وكانت الشرائع السابقة خاصة فى الزمان وفى المكان ، حيث كانت الحياة البشرية تتقلب فى أطوار مختلفة حتى إذا ما بلغت الرشد العقلى ، ونمت واكتملت قضت حكمة العزيز الحكيم أن يرسل رسوله محمدًا (ﷺ) بالشريعة العامة التامة الثابتة الخالدة ، فجاءت الشريعة الخاتمة عامة فى الزمان والمكان ، شاملة للإنس والجن والعرب والعجم والأحمر والأسود ، قال « الله » تعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾(٢)

وقال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾(٣)

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾(٤)

ومما يدل على عموم رسالة سيدنا محمد (ﷺ) من السنة قوله : «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِى : نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ**

---

(١) آل عمران : ١٩ .   (٢) الأعراف : ١٥٨ .

(٣) سبأ : ٢٨ .   (٤) الأنبياء : ١٠٧ .

شَهْرٍ ، وجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، فَأَيُّما رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ ، فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغنائِمُ ، وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وكانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عَامَّةً»[1] فعموم الرسالة من خصوصيات رسول الله (ﷺ) وليس لأحد من الرسل السابقين عموما فى رسالته وهذا العموم لرسالة سيدنا مُحَمَّد (ﷺ) كان فى أصل بعثته ومن مبدئها وأولها .

كما أنه عموم فى بقاء شريعته إلى يوم القيامة ، فلا نبى بعده ولا شريعة بعد شريعته ، وللحافظ ابن حجر فى هذا المقام كلام طيب دقيق ، أرى من تمام الفائدة أن أورده هنا ، قال : ولا يُعْتَرَضُ بأن « نُوحا » (عليه السلام) كان مبعوثا إلى أهل الأرض بعد الطوفان لأنه لم يبق إلاَّ من كان مؤمنا معه ، وقد كان مُرْسَلاً إليهم ، لأن هذا العموم لم يكن فى أصل بعثته ، وإنما اتفق بالحادث الذى وقع ، وهو انحصار الخلق فى الموجودين بعد هلاك سائر الناس . وأما نبينا (ﷺ) فعموم رسالته من أصل البعثة ، فثبت اختصاصه بذلك ، وأما قول أهل الموقف لـ (نُوح) كما صح فى حديث الشفاعة : **أنت أول رسول إلى أهل الأرض** .. فليس المراد به عموم بعثته ، بل إثبات أولية إرساله ، وعلى تقدير أن يكون مُرادًا ، فهو مخصوصٌ بتنصيصه

---

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى .

سبحانه وتعالى فى عدة آيات على أن إرسال (نُوح) كان إلى قومه ، ولم يذكر أنه أُرْسِلَ إلى غيرهم .

واستدلَّ بعضهم لعموم بعثته بكونه دعا على جميع من فى الأرض ، فأُهْلِكوا بالغرق إلاَّ أهل السفينة ، ولو لم يكن مبعوثا إليهم لما أُهْلِكوا ، لقوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥ ﴾[1]

وقدَ ثبت أنه أول الرسل ، وأجيب بجواز أن يكون غيره أُرْسِلَ إليهم فى أثناءِ مدة (نوح) ، وعلم (نوح) بأنهم لم يؤمنوا ، فدعا على من لم يؤمن من قومه ومن غيرهم فأجيب ، وهذا جوابٌ حسن .

لكن لم ينقل أنه نُبِّىءَ فى زمن (نوح) غيره ، ويحتمل أن يكون معنى الخصوصية لنبينا (ﷺ) بقاء شريعته إلى يوم القيامة ، و (نوح) وغيره بصدد أن يُبعث نبىٌّ فى زمانه أو بعده فينسخ بعض شريعته .. ثم قال الحافظ : ويحتمل أنه لم يكن فى الأرض عند إرسال (نوح) إلاَّ قومه ، فبعثته خاصة لكونها إلى قومه فقط ، وهى عامة فى الصورة ، لعدم وجود غيرهم ، ولكن لو اتفق وجود غيرهم لم يكن مبعوثا إليهم[2] . وثبت فى رواية الإمام مُسْلم : **وبُعِثْتُ إلَى كُلِّ**

---

(١) الإسراء : ١٥ .

(٢) فتح البارى ج ١ ص ٤٥٣ ط الحلبى .

أَحْمَرَ وَأَسْوَد .. والمراد **بالأحمر** : العجم ، **وبالأسود** : العرب ، وقيل : الأحمر الإنس ، والأسود الجن .. وفى رواية أبى هريرة (رضى الله عنه) عند الإمام مُسْلِمٍ ما هو أصرح من ذلك فى الدلالة على عموم الرسالة إلى جميع الخلق : **وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً** ، وأما خلود رسالته (ﷺ) ، فقد تكفَّل ربُّ العزة سبحانه وتعالى بحفظها وحفظ دستورها السماوى وهو القرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1]

وقد ختم «الله» تعالى به جميع الأنبياء والمرسلين ؛ فلا نبى بعده ولا رسالة بعد رسالته ، قال (ﷺ) : « **كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ ، وَأَنَّهُ لا نبىَّ بَعْدِى وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ** » .

---

(١) الحجر : ٩ .

حَاجَةُ الإنسانِ إلَى رِسَالَةِ سَيِّدنا محمد (ﷺ)

لم تتوفر همم المسلمين على جمع تراث وتفاصيل حياة بأكملها كما توفرت لجمع كل ما يتصل بحياة خاتم الأنبياء ورسول الله الذى بَعَثه « الله » رحمة للعالمين .

فقد جمعت أقواله (ﷺ) وأفعاله ، وتقريراته وصفاته الخِلقِيَّة ، والخُلُقِيَّة ، وسيرته ، ومغازيه . وكان اهتمام المسلمين بالغا فى تسجيل جميع عباداته ، وعاداته ، وحركاته ، وسكناته لقد سجل التاريخ ، والسُّنَّة ، وكتب السيرة ، والشمائل جميع ما يتصوره العقل البشرى فيما يتصل بحياة رسولنا الكريم (ﷺ) . ولم يكن ذلك مجرد جمع وتسجيل فحسب بل كان بأدق الطرق فى التوثيق والصحة مما لايسع المُطَّلع عليه إلاَّ الإيمان به وتصديقه . وحسبك - أيها القارئ العزيز - أن تلقى نظرة عابرة على موازين التحمُّل والأداء ، وقوانين الرواية وقواعد الجرح والتعديل .. وغير ذلك مما هو مبسوط فى كتب علوم الحديث .

ولم يقتصر تسجيل وقائع الحياة على حياته العامة فقط ، ولا على عباداته (ﷺ) ومعاملاته ، بل إنه شمل حياته الخاصة ودقائق ما يتصل به ، مثل : مرضعاته ، وحواضنه ، وأعمامه ، وأزواجه ، ومواليه ،

وخدمه ، وكُتَّابه ، وشعرائه ، ودوابِّه ، وملابسه .. وغير ذلك من أموره وشئونه (ﷺ) .

ثم ما يتَّصل بهديه (ﷺ) فى : أكله وشُرْبه ، ونومه وانتباهه ، وركوبه ومشيه ، وبيعه وشرائه ، وجلوسه واتِّكائه ، وضَحِكه وبُكَائه ، وما نقلته كتب الشمائل المحمدية وغيرها من كتب السُّنَّة والسيرة والتاريخ الإسلامى . ولم يكن هذا كله ليقع مصادفة ودون حكمة من « الله » العزيز الحكيم . وإنما كان نقل كل ما يتَّصل برسول الله (ﷺ) لحكمة دقيقة :

حتى لا يكون هناك عذر لمعتذر ، ولا علة لمتعلِّل فى ترك الاقتداء به أو العدول عن الاهتداء بِهَديه - حتى لا يكون شيء من ذلك ؛ فقد حفظ «الله» تعالى أقوال هذا الرسول العظيم (ﷺ) ، وأفعاله ، وتقريراته ، وصفاته ، وكل ما يتصل به . وحفظ «الله» كل حقيقى وصادق من سُنَّته الشريفة ليكون بيانًا للقرآن الكريم الذى تكفَّل «الله» تعالى بحفظه فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾[1]

وقال سبحانه فى شأن بيان القرآن الكريم وأنه تكفَّل به :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ ﴾[2]

(١) الحجر : ٩ .   (٢) القيامة : ١٧ - ١٨ .

وجعل «الله» تعالى الدليل على محبته - سبحانه - هو اتباع الرسول (ﷺ) فى قول «الله» تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١]

فكل مُدَّعٍ لمحَبَّة «الله» تعالى ولم يتبع رسول الله (ﷺ) فهو كاذب فى دعواه حتى يتبع شريعة «الله» تعالى وكما جاء فى الحديث : « **مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عليه أَمْرُنا فَهُوَ رَدٌّ** »[٢] .

يقول الحافظ ابن كثير فى تفسيره : فدل على أن مخالفته فى الطريقة كفر ، و «الله» لا يحبُّ من اتَّصَفَ بذلك وإن ادعى وزعم فى نفسه أنه مُحِبٌّ «لله» ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبى العربى الأمى خاتم الرسل ورسول الله إلى الثقلين - الجن والإنس - الذى لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم فى زمانه ما وَسِعَهُم إلاَّ اتِّباعه والدخول فى طاعته واتباع شريعته .

ولقد حمل سيدنا عيسى (عليه السلام) البشارة برسول الله (ﷺ) ، وقصَّ القرآن نبأ تلك البشارة فى قول « الله » تعالى : وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾[٣] .

(١) آل عمران : ٣١ .   (٢) رواه أحمد ومسلم .   (٣) الصف : ٦ .

وفيما رواه الإمام أحمد - بسنده - عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخْبِرْنى عن صفة رسول الله (ﷺ) فى التوراة ، فقال : أجل «والله» إنه لموصوف فى التوارة بصفته فى القرآن : **(يَأَيُّهَا النَّبِىُّ إنَّا أَرْسَلْنَاك شَاهِدًا ومُبَشِّرًا ونَذِيرًا وحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ وأَنْتَ عَبْدِى وَرَسُولِى سَمَّيْتُكَ المتَوكِّل ، لا فظّ وَلاَ غَلِيظَ وَلاَ صَخَّابَ فِى الأَسْوَاقِ وَلاَ يَدْفَعُ بالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَعْفُو ولَنْ يَقْبِضَهُ حَتَّى يُقِيمَ به المِلَّةَ الْعَوْجَاء بَأَنْ يَقُولُوا : لاَ إِلَهَ إلا الله فَيَفتحُ بِهِ أَعيُنًا عُمْيًا ، وآذَانًا صُمًّا وقُلوبًا غُلْفًا)** [١] .

وكان طبيعيًّا أن يحفظ «الله» تعالى سُنَّةَ النبى (ﷺ) ويوفق المسلمين فى كل عصر ومصر ليتناقلوها ، ويدونوا كل ما يتصل بحياته بحيث من شاء أن يصدر فى حياته العامة والخاصة وباقى شئون حياته عن سُنَّة رسول الله (ﷺ) ، وأن يقتدى به وجد الأمر سهلا ومُيسَّرًا . إنه النبى الخاتم الذى لا نبىَّ بعده ، فالاقتداء به دائم ومستمر إلى أن يقوم الناس لرب العالمين . وقد وجه «الله» المسلمين للاقتداء به ، واتخاذه الأسوة الحَسنَةَ لكل من يرجو «الله» واليوم الآخر ويعرف «لله» حقه ويذكره ذكرًا كثيرا .

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [٢]

---

(١) رواه أحمد .   (٢) الأحزاب : ٢١ .

ويقول الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كتابه : « النَّبِىُّ الخَاتَمُ » مُشِيرًا إلى أخبار الأنبياء السابقين منها المطمور فى الماضى ، ومنها ما لا يكمل يقول : أما الأنبياء الآخرون وعظماء الملل والديانات السابقة فيصح القول بأن أخبارهم وصور حياتهم مطمورة فى ركام الماضى ، وهنالك حلقات رئيسية لا يكمل بغيرها التاريخ ولا يتسنَّى بدونها الاقتداء والتقليد ، مفقودة لا يمكن البحث عنها والاهتداء إليها فى هذا العصر المتأخر ، وهذا ما تقتضيه الحكمة الإلهية ومنطق الأشياء ؛ فالمثل الإنسانية لها أعمار طبيعية وحيوية محدودة ، فإذا انتهت لم تكن مصلحة فى تناقلها .. أما ما كانت الحاجة إليه قائمة دائمة فيبقى على اختلاف الزمان والمكان ، ويستمر ، وينتشر ، ويورق ، ويثمر .

وكما تكفَّل «الله» تعالى بحفظ القرآن الكريم وهو دستور هذا الدين والأصل الأول من أصول تشريعه ، وكما حفظ الصحيح من (السُّنَّة) ليكون بيانا للكتاب العزيز ، وهى المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن الكريم فإن «الله» تعالى بَشَّر بأن الإسلام سيبلغ منتهاه وذروته العالية وتعلو كلمته ويظهره «الله» على الدِّين كُلِّه قال تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩ ﴾[1]

---

(١) الصف : ٩ .

ويقول سبحانه وتعالى فى آية أخرى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾[1]

يعلن « الله » تعالى بأنه متكفِّل بحفظ هذا الدِّين وتمامه وإظهاره على الدِّين كله مهما حاربه أعداؤه ومهما حاولوا إطفاء نوره .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾[2].

وإن لرسولنا (ﷺ) مكانته العالية ، ومنزلته السامية ، فهو المتمم لمكارم الأخلاق ، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين الذى أكمل «الله» به البناء وأتمَّ به النعمة وبعثه رحمة للعالَمين لهذا كانت حاجة الإنسان إلى رسالة سيدنا محمد (ﷺ) ضرورية .

ومن ذلك كله نقف على مكانة هذا الدِّين ، وأن «الله» تعالى هو الذى تكفَّل بحفظ أصوله ومصادره من الكتاب العزيز والسُّنَّة المطهرة وأنه سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ الدعوة نفسها ، ومظهرها على كل الدعوات ، ومتمم لها ، ومهما حاول أعداء الإسلام قديما وحديثا أن يُطفئوا نورها فلن يستطيعوا ولن ينالوا منها منالا ، أو يبلغوا منها

---

(١) الفتح : ٢٨ .   (٢) الصف : ٨ .

مبلغا لأن حافظها وممسكها هو الذى يمسك السموات والأرض هو «الله» رب العالمين ، وإذا عرفنا بأن الإنسان كان فى أَمَسِّ الحاجة إلى رسالة سيدنا محمد (ﷺ) لِيُخرِجَ الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الضلال إلى الهدى ومن الباطل إلى الحق ، فلنقف على المرحلة الأولى من حياته (ﷺ) .

حَوْلَ المرْحَلَةِ الأُولَى مِنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ (ﷺ)

إن حياة رسول الله (ﷺ) كلها خير وحق ، وكلها نور وهِدَاية .. أحاطتها العناية الإلهية منذ أول وهلة ..

فلقد اختار «الله» تعالى رسوله (ﷺ) ، من أشرف القبائل ، ومن خيار البطون وأزكاها ، وأطهر الأصلاب وأنقاها ، فهو خير أهل الأرض نَسَبًا وشَرَفًا ، حتى إن أعداءه قد شهدوا بذلك ، ولم يستطيعوا إنكاره فهو :

سيدنا محمد (ﷺ) بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .. وإلى هنا اتفق النسَّابون على نسبه ، ولم يختلفوا فيه .

وعدنان هذا من ولد إسماعيل (عليه السلام) فنسبه يصل إلى سيدنا إبراهيم (عليه السلام) . ولقد تحدث رسول الله (ﷺ) عن نسبه فقال : « **إنَّ الله اصْطَفَى كنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إسْمَاعِيلَ ، واصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كنَانَة ، واصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بنِى هَاشمٍ ، واصْطَفَانِى مِنْ بَنِى هَاشم** » [1]

---

(١) رواه مسلم .

وقال (ﷺ) – متحدثا بنعمة «الله» عليه ، ومُبلغا أمته ليعرفوه وَيُوَقِّرُوه : « **أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ ، وأَوَّلُ شَافِعٍ ، وأَوَّلُ مُشَفَّعٍ** »[1]

وقد حفظ التاريخ عراقة أصله (ﷺ) ، وشرف مَحْتِدِهِ ، وكرم آبائه وأجداده ، فأبوه هو عبد الله ، الذى كان شعاره : « **أَمَّا الحَرَامُ فَالمَمَاتُ دون** » ، وقد قالت له فاطمة الخثعمية : « **إِنِّى لأَعْرِفُ فِيكَ نُسُكَ أبيكَ** » .

وأما جَدُّه عبد المطلب ، وهو المعروف بشيبة الحمد ، فقد تولى الرفادة والسقاية فكان يطعم الحجيج ويسقيهم فى حياض من أدم إلى أن حفر زمزم ، وكانت زمزم سقيا من «الله» ، لقد أتاه فى النوم آت ، فأمره بحفرها قائلا له : **احفر طيبة** ، فقال : **وما طيبة ؟!** ، فلما كان الغد أتاه فقال : **احفر بره** ، فقال : **وما بره ؟!** فلما كان الغد أتاه وهو نائم فقال : **احفر المضنونة** ، قال : **وما المضنونة ؟! أين لى ما تقول ؟!** فلما كان الغد أتاه فقال : **احفر زمزم** ، قال : وما زمزم ؟! قال : **لا تنزح ولا تذم ، تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم** . فلما بيَّنها له ذهب عبد المطلب هو وابنه الحارث وحفرها ، وكان عبد المطلب أجود قريش كفًّا ، وأبعد الناس عن كل موبقة تفسد الرجال ، وكان سيد قريش حتى مات ، كما وصفه المؤرخون .

---

(١) رواه مسلم .

وأما هاشم فاسمه عمرو ، وهو الذى عقد الحلف لقريش من هرقل ، لتختلف إلى الشام فى أمان وسلام ، وهو صاحب **إيلاف قريش** : أى دأبها وعادتها ، وأول من سَنَّ الرحلتين : رحلة الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة إلى النجاشى ، ورحلة الصيف إلى الشام وإلى غزَّة .. وحين أصابت قريشا سنوات جدب خرج إلى الشام ، وأمر بخبز كثير وحمله حتى وافى مكة وهَشَّم ذلك الخبز أى كسره ، وثرده ونحر الإبل ، وقدم الطعام لأهل مكة . وقد تولى هاشم **السقاية والرفادة** ، وكان كثير الثراء ، إذا حضر الحج قام فى قريش فقال : يا معشر قريش إنكم جيران «الله» وأهل بيته وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زوار «الله» يعظمون حرمة بيته ، فهم ضيف «الله» ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خصَّكم «الله» بذلك ، وأكرمكم به ، وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره فأكرموا ضيفه وزواره .

وكان يطعمهم قبل التروية بيوم بمكة ، وبمنى ، وعرفة .

وأما عبد مناف فإن رسول الله (ﷺ) اقتصر عليه حين أنزل « الله » تعالى عليه :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾[1] .

فحين اجتمع به بنو عبد مناف أخبرهم بأن «الله» أمره أن ينذر عشيرته الأقربين ، قال (ﷺ) : «**وأَنْتُمُ الأَقْرَبُونَ مِنْ قُرَيْشٍ**» .

---

(١) الشعراء : ٢١٤ .

وأما قُصَىٌّ فكان شريف أهل مكة ، بنى دار الندوة وجعل بابها إلى البيت ، وكانت إليه الحجابة وهى : سدانة البيت ، **والسقاية وهى** : سقيا الحجيج ، **والرفادة وهى** : إطعام الحجيج ، **واللواء** : للحرب ، **والندوة** : للمشورة وقبل موته أعطى مناصب الشرف إلى أكبر أبنائه وهو عبد الدار ، ومن أبنائه عبد مناف ..

وأما عن ولادته صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه قبل ذلك رأت أمه آمنة بنت وهب أمارات الحمل ، ولكنها لم تكن تتأكد وتشعر أنها حامل ، وذلك من عناية «الله» تعالى ورعايته ، ولم تر فى حمله تعبًا ولا مشقَّة ، ولذلك كانت تقول :

مَا شَعرتُ أَننى حَمَلْتُ بِهِ وَلاَ وَجَدتُ له ثقله ، كما تَجِدُ النِّسَاء ، إلاَّ أَنِّى قَدْ أنكَرْتُ رَفْعَ حَيْضَتِى ، وَرُبَّما كَانَتْ تَرْفَعُنِى وَتعُودُ وَأَتَانِى آتٍ وَأَنَا بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَان فَقَالَ : هَلْ شَعُرْتِ أَنَّكِ حَمَلْتِ ؟ فَكَأَنِّى أَقُولُ : مَا أَدْرِى ، فَقَالَ : إِنَّكِ قَدْ حَمَلْتِ بِسَيِّدِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَنَبِيِّهَا . وَذَلِكَ يَومَ الإِثْنَينِ ، قَالَتْ : فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا أَيْقَنَ عِنْدِى الحَمْلَ .

وكانت ولادته (ﷺ) يوم الإثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول (عام الفيل) . وبعد ولادته جاء جَدُّه عبد المطلب فنظر إليه ودخل به الكعبة ، وقام يدعو «الله» ، وسمَّاهُ مُحَمَّدًا فقيل له : **مَا سَمَّيتَ ابنَكَ ؟** قال : **مُحَمَّدًا** ، فقيل له : **كَيفَ سَمَّيتَهُ بِاسمٍ لَيسَ لِأَحد**

مِن أَبنائِكَ وَقَومِكَ ، فقال : **إنى لأَرجُو أَن يَحمَدَهُ أَهلُ الأَرضِ كُلُّهُم** .. وتحدث رسول الله (ﷺ) عن أسمائه ، قال : «**إنَّ لى أَسمَاءً : أنا مُحَمَّدٌ وأنا أَحْمَدُ وأنا الْحَاشِرُ الَّذِى يُحشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِى وأنا المَاحِى الَّذى يُمْحَى بِهِ الكُفْرُ وأنا العَاقِبُ**»[1] .

وقد فرح عبد المطلب بولادته (ﷺ) أيما فرح ، وعنى به كل العناية ، أما أبوه فقد توفى وهو (ﷺ) فى بطن أمه حيث كانت حاملا به لشهرين ، فولد يتيمًا ، ولكن جَدَّه كان معنيًّا به فرحًا بقدومه وولادته .

ولقد التمس جَدُّه عبد المطلب له المراضع ، قال ابن إسحاق : حدثنى جهم بن أبى جهم مولى الحارث بن حاطب الجمحى عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب أو عمن حدثه عنه ، قال : كانت حليمة بنت أبى ذُؤَيْب السعدية أم رسول الله (ﷺ) التى أرضعته تحدث أنها خرجت مِنْ بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه فى نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء ، قالت : **وذلك فى سنة شهباء لم تبق لنا شيئا ، خرجت على أتان لى قمراء معنا شارف لنا**[2] **والله ما تبض بقطرة**[3] ، **وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا ، من بكائه من الجوع وما فى ثديى ما يغنيه وما فى شارفنا**

---

(١) رواه الإمام أحمد . (٢) ناقة مسنة . (٣) ما ترشح بشىء .

ما يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتانى تلك فلقد أذمت بالركب[١] ؛حتى شقَّ ذلك عليهم ضعفا وعجفا[٢] حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة إلاَّ وقد عرض عليها رسول الله (ﷺ) فتأباه ، إذا قيل لها : إنه يتيم ، وكذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبِى الصبى ، فكنا نقول : يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه وجَدُّه ، فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معى إلاَّ أخذت رضيعًا ، غيرى ، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى : و « الله » إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعًا ، و « الله » لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخُذَنَّه ، قال : لا عليكِ أن تفعلى عسى « الله » أن يجعل لنا فيه بركة .

وقد لمست « حَلِيمَةُ » الخير الوافر ، والبركة الكثيرة فى اللبن ، والشارف ، والأتان ، وكانت بادية (بنى سعد) تعانى . سنة مجدبة ، فما إن صار فيها سيدنا محمد (ﷺ) عند حليمة حتى أصبحت منازل حَلِيمة من حولها مرعة خضراء كثيرة الخير ، وأحاطته العناية الإلٰهية منذ ولادته بل وقبل ذلك أثناء الحمل ، فكانت رعاية «الله» تعالى وحفظه إياه ونصرته له دائمًا وأبدًا .

عن ابن عباس (رضى الله عنهما) : إنه لما تُوفِّى عَبْدُ الله ، قالت

(١) أى حبستهم أو بمعنى أذمت الأتان : جاءت بما تذم عليه ، أو من قولهم بئر ذمة : قليلة الماء . (٢) هزالا .

الملائكة : **إلهنَا وسيِّدَنا بقى نبيُّك يَتيمًا ؟** : فقال «الله» تعالى : **(أنا له حَافِظٌ ونَصِيرٌ)** .

ثم حدث – وهو فى (بنى سَعْدٍ) – أن جاءه جبريل ، وكانت حادثة **شق الصدر** ، «أَتَاهُ جِبرِيلُ فأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ ، فَشَقَّ عَن قَلبِهِ فَاستَخرجَهُ فَاستَخرجَ مِنه عَلَقَةً ، فقال : **هَذَا حَظُّ الشَّيْطَان مِنْكَ** ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِى طِسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَم ، ثُمَّ لأَمَهُ وَأَعَادَهُ إِلَى مَكَانِهِ» (١)

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه – أى مرضعته – أن مُحَمَّدا قد قُتِلَ ، فاستقبلوه وهو مُمْتَقِعُ اللون وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات .

وتكررت حادثة شق الصدر ، عندما بلغ رسول الله (ﷺ) عشر سنوات ، فعن أُبَىّ بنِ كَعْبٍ : أن أبا هريرة (رضى الله عنه) كان جريئا على أن يسأل رسول الله (ﷺ) عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال :

يارسولَ الله ، ما أَوَّلُ ما رأيتَ مِنْ أَمْرِ النبوَّةِ ؟ فاستوى رسول الله (ﷺ) وقال : **لَقَد سَأَلتَ أَبَا هُرَيرةَ ، إِنِّى لَفِى صَحْرَاء ابن عَشر سِنِين وَأَشهر ، وَإِذَا بِكَلاَمٍ فَوقَ رَأْسِى ، وَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ لِرَجُلٍ : أَهُوَ هو ؟ قال : نعم ، فاستَقْبلانى بِوُجُوهٍ لم أَرَهَا لخَلْقٍ قطٌّ ، وأرواحٍ لم أجدْها من خَلْقٍ قَطّ ، وثيابٍ لم أرها على أحدٍ قطّ ، فأقبلا إلَىَّ يَمشِيَانِ حتَّى أَخذ كُلُّ واحدٍ منهُمَا بِعَضُدِى**

---

(١) رواه مسلم .

لاَ أَجِدُ لأحدِهما مَسًّا ، فقال أحدهما لصاحبه : أَضْجِعْهُ . فَأَضْجَعَانِي بلاَ قَسْرٍ ولا هَصْرٍ ، وقال أحدهما لصاحبه : «أفلِقْ صَدْرَه» ، فَهَوَى أَحَدُهُمَا إِلَى صَدرى فَفَلَقَهُ - فيما أرى - بِدُونِ دَمٍ وَلاَ وَجَعٍ ، فقال له : أَخرِجِ الغِلَّ وَالْحَسَدَ . فأَخْرَجَ شَيْئًا كَهَيْئَةِ العَلَقَةِ ، ثُمَّ نَبَذَهَا فَطَرَحَهَا . فقال له : أَدخِلِ الرَّأْفَةَ وَالرَّحْمَةَ ، فَإِذَا مِثْل الَّذِى أَخرجَ يُشبِهُ الفِضَّةَ ، ثُمَّ هَزَّ إِبهامَ رِجلي اليُمنَى ، فقال : اغْدُ واسْلَمْ . فَرَجَعتُ بِهَا أَغدُو رِقَّةً عَلَى الصَّغِيرِ وَالكَبِيرِ» (١)

ثم تكررت حادثة شقّ الصدر مرة ثالثة عندما جاوز (ﷺ) الخمسين عندما كان فى الحطيم ، وأتى بطستٍ مملوء إيمانا فغسل قلبه ثم حُشِيَ ثم أُعِيدَ .

وقال (ﷺ) : «فُرِجَ عَن سَقفِ بَيتِى وَأَنَا بِمَكَّةَ فَنَزَلَ جبرِيلُ (عَلَيهِ السَّلام) فَفُرِجَ صَدرِى ، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمزَم ، ثُمَّ جَاءَ بِطستٍ مِن ذَهَبٍ مُمتلِءٍ حِكْمَةً وَإِيمانًا ، فَأَفْرَغَهُ فِى صَدْرِى ، ثُمَّ أَطبقَهُ ، ثُمَّ أَخذَ بِيَدى فَعَرَج بِى إلى السَّمَاءِ الدُّنيا» (٢)

وهذا الحديث يوضح أن الشق كان فى هذه المرة ليلة المعراج .

وقال الشيخ الشرقاوى - فى : « فَتْحِ المُبْدِى » ، عند الكلام على هذا الحديث - : وفعل به ذلك لاستعداده للتلقى الحاصل له فى تلك الليلة ، قال : ووقع له ذلك فى صغره عند مرضعته «حَلِيمة»

(١) رواه الإمام أحمد ، وابن حبان ، والحاكم .
(٢) رواه البخارى .

وهو ابن أربع لنزع العَلَقَة التى هى حظُّ الشيطان منه ، وفى كِبَرِه عند مجىء (جبريل) له بالوحى فى غار (حِرَاء) ، ليتلقى الوحى بقلب قوى ، وروى شقُّ الصدر أيضا وهو ابن عشر أو نحوها ، وروى مرة أخرى خامسة ، ولم تثبت [1] أ . هـ

وليست عملية شق الصدر استئصالا لغدة من الغدد فى داخل الجسم أو قطعة لحم تقطع من داخل الجسد فيصبح بذلك خيرًا ، وإلاَّ لأمكن استبعاد الشر واستئصاله بعملية جراحية .. كلا ، وإنما هى عملية تطهير معنوى أخذت الصورة المادية والشكل المحسوس ليكون فى ذلك مزيد بيان وإيضاح ، وإعلان على مرأى ومسمع من الناس ، فيعلن أمر صاحب الرسالة الذى أُعِدَّ للعصمة وللوحى الإلٰهى فكان مجىء شق الصدر بالوسيلة المادية المحسوسة أقرب ما يكون لأن يؤمن به الناس ، وليصدقوه ، وليكون ذلك معلَنا عليهم ، وما ذلك إلاَّ بقدرة «الله» العزيز الحكيم .

وعندما حدثت حادثة شقِّ الصدر لرسول الله (ﷺ) قال أبوه — أى من الرضاع وهو زوج « حليمة » : ياحليمة ، لقد خشيتُ أن يكونَ هذا الغلامُ قد أُصيبَ فألْحِقيه بأَهْلِهِ ، قبل أن يظهر ذلكَ به ، قالت : فاحتملناه فقدمْنا به على أُمِّه ، فقالت : **ما أقدَمَكِ بهِ ياظِئر**[2] ، **وَقد كُنتِ حَرِيصَةً عَلَيهِ ، وَعَلى مُكْثِه عِندَكِ ؟**

---

(١) فتح المبدى .　　　(٢) الظئر : المرضعة لغير ولدها .

قالت : فَقُلتُ : قد بَلَغ «الله» بابنى ، وقضيتُ الَّذى عَلَىَّ ، وَتخوَّفتُ الأَحداثَ عَلَيهِ ، فأدَّيتُهُ إِلَيكِ كما تُحِبِّين ، قالت : مَا هَذا شأنُكِ ، فاصْدُقِينِى خَبَرَكِ .

قالت : فَلَمْ تَدَعْنِى حَتَّى أُخبَرتُهَا ، قالت : أَفَتخَوَّفْتِ عَلَيهِ الشَّيطَانَ ؟ قالت : قُلتُ : نَعَم ، قالت : كَلاَّ ، و«الله» مَا لِلشَّيطَانِ عَلَيهِ مِنْ سَبِيلٍ ، وإِنَّ لِابنى لَشَأْنًا ، أفَلاَ أُخبِرُكِ خَبَرَهُ ؟

قالت : قلت : بلى ، قالت : رَأَيتُ حِينَ حَمَلْتُ بِه أَنَّهُ خَرَجَ مِنِّى نُورٌ أَضاءَ لِى قُصُورَ بُصرى مِن أرضِ الشام ، ثُمَّ حَمَلْتُ بهِ ، فو «الله» ما رأيتُ مِنْ حملٍ قطُّ كان أخفَّ ولا أيسرَ منهُ ، وَوَقَعَ حِين وَلَدتُهُ ، وَأنَّه لَوَاضِعٌ يَدَيه بالأَرْضِ ، رَافِعٌ رأسَهُ إِلى السَّماءِ .

الرَّسُولُ (ﷺ) فى شَبَابِهِ

● لقد كانت مرحلة شبابه (ﷺ) طاهرة نقية ، مستقيمة زكية ، بعيدة كل البعد عن اللهو والعبث ، بعيدة عن الشيطان ووساوسه ، وعن الهوى وهواجسه ، فقد عصمه «الله» تعالى ورعاه ، وحفظه من كل سوء ، فشرح «الله» له صدره ، ولم يجعل للشيطان عليه من سبيل .

لقد تُوفِّىَ أبوه وهو فى بطن أمه ، على أصح الآراء .. وأما أمه فقد تُوفِّيَت بين مكة والمدينة بـ «الأبواء» منصرفها من المدينة ، من زيارة أخواله بنى النجار ، وهم أخوال أبيه عبد الله . وكان عمر الرسول (ﷺ) إذ ذاك لم يستكمل سبع سنين ، فكفله جَدُّه : عبد المطلب .

ثم تُوفِّى عبد المطلب ، وكان عمره نحو ثمان سنين ، وقيل ست ، وقيل عشر ، وعندئذ كفله عمه : أبو طالب .

وبرغم ما كانت تعج به الحياة من حوله ، من لهو وعبث ، ومن تهالك الشباب وتهافتهم على مظاهر اللعب والطرب ، فإن شباب رسولنا (ﷺ) كان مصونا من كل دنسٍ ، محفوظا من كل سوء أو شر .

وكان طبيعيا أن ينشأ هذه النشأة الطاهرة النقية ، لأن العناية

الإلهية كانت تُعِدُّه لأمر السماء ، ووحى «الله» ، وتبليغ الرسالة .. كما كان دعوة أبيه (إبراهيم) ، وبشرى أخيه (عيسى) ، ورأت أمه عندما حملت به من البشارات ما رأت .. وشرح «الله» صدره .

نُـــورٌ ودَعْـــوَةٌ :

● يقول ابن إسحاق : وحدثنى ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم – ولا أحسب إلا عن خالد بن معدان الكلاعى – أن نفرا من أصحاب رسول الله (ﷺ) ، قالوا له : **يارسول الله ، أخبرنا عن نفسك .**

قال : **نَعَمْ ، أَنَا دَعْوَةُ أَبِى (إِبْرَاهِيم) ، وَبُشْرَى أَخِى (عِيسَى) ، وَرَأتْ أُمِّى حِينَ حَمَلتْ بِى أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ وَأَضَاءَ قُصُورَ الشَّام ، وَاسْتُرْضِعْتُ فى بَنِى سَعْدِ بنِ بَكْرٍ ، فَبَيْنَمَا أَنَا مَعَ أَخٍ لِى خَلْفَ بيُوتِنَا نَرْعَى بهْمًا لَنَا ، إِذْ أَتَانِى رَجُلانِ – عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ – بِطِسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءةٍ ثَلْجًا ، ثُمَّ أَخَذَانى ، فَشَقَّا بَطْنِى ، وَاسْتَخْرَجَا قَلْبِى فَشَقَّاهُ ، فَاسْتَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَةً سَوْدَاءَ فَطَرَحَاهَا ، ثُمَّ غَسَلا قَلْبِى وَبَطْنِى بِذَلِكَ الثَّلجِ حَتَّى أَنْقَيَاهُ ، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : زِنْهُ بِعَشْرَةٍ من أُمَّته ، فَوَزَنَنِى بهم فوزنْتُهم .**

ثم قال : **زِنْهُ بِمَائةٍ مِن أُمَّتِهِ فَوَزَننى بِهِم فَوَزَنْتُهُم** ، ثم قال : **زِنْهُ بِأَلْفٍ مِن أمَّتِهِ ، فَوَزَننى بِهِم فَوَزَنْتهُم .**

فقال : دَعْهُ عَنْكَ ، فَوَ اللهِ لَوْ وَزَنْتَهُ بِأُمَّتِهِ لَوَزَنَهَا ، زاد الطبرى :

قال : ثُمَّ ضَمُّونى إلى صَدْرِهم ، وَقَبَّلُوا رَأْسِى وَمَا بَيْنَ عَيْنَىَّ ، ثم قالوا : يَاحَبِيبُ ، لَمْ تُرَعْ ، إِنَّكَ لَوْ تَدْرِى مَا يُرَادُ بِكَ مِنَ الخيرِ لَقَرَّتْ عَيْنُكَ .

شَبَابُ الطُّهْرِ والنَّقَاءِ

● ولقد عاش رسول الله (ﷺ)، فترة شبابه بالعمل والسعى، واشتغل برعى الأغنام ، قال (ﷺ) : «**كُنْتُ أَرْعَى الغَنَم عَلَى قَرَارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ**»(١) .. وفى كدِّه وجدِّه ، وفى اشتغاله بالعمل - رغم كفالة عمه له - ما يفيد أهمية العمل ، وأن خير ما يأكله الإنسان ما كان من عمل يده ، كما أن فى العمل ثمرة هامة أخرى بالإضافة إلى نفع الإنسان لنفسه ، وتلك الثمرة هى انتفاع الحياة من العمل ، وازدهار حركة المجتمع بالنشاط فيها والتفاعل معها .

وحفظ «الله» تعالى رسوله (ﷺ) ، من أى عبث أو لعب ، كان يأتيه غيره فى مثل سِنِّه قال (ﷺ) «**مَا هَمَمْتُ بِشَىْءٍ مِمَّا كَانوا فى الجاهِلِيَّة يَعمَلُونَهُ غَير مَرَّتَينِ ، كُلُّ ذَلِكَ يَحُولُ الله بينِى وبَيْنَه ، ثُمَّ مَا هَمَمْتُ بِهِ حتى أَكْرَمَنِى الله بالرِّسَالة** ، قُلتُ لَيْلَةً لِلغُلاَمِ الَّذِى يَرْعَى مَعِى بأَعْلَى مَكَّةَ : **لَوْ أَبصَرْتَ لى غَنَمِى ، حَتَّى أَدْخُلَ مَكَّةَ ، وَأَسْمر بها ، كما يسْمر الشَّبَابُ** فَقَال : **أفعل ، فَخَرجْتُ حتَّى إذا كُنْتُ بمكَّةَ سَمِعْتُ عَزْفا** ، فَقُلْتُ : مَا هَذَا ؟ فَقَالُوا : **عُرْسٌ ، فَجَلَسْتُ أَسْمَعُ ، فَضَرَبَ الله عَلَى أُذنى ، فَنِمْتُ ، فَمَا أَيقَظَنِى إلاَّ حَرُّ الشَّمْسِ ، فَعُدْت إلى صاحِبى ، فسألنى فَأَخْبَرْتُهُ** ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ لَيْلَةً أُخرَى مِثل ذَلِكَ **وَدَخلْتُ مَكَّةَ ، فَأَصَابَنِى مِثْل أَوَّل لَيْلَة ثُمَّ مَا هَمَمْت بَعْدَهُ بِسُوءٍ**»(٢)

---

(١) رواه البخارى .   (٢) رواه الحاكم والطبرانى .

فضائل مثلى

هكذا كانت العناية الإلهية ، تحيط بحياة الرسول (ﷺ) ، فى كل لحظة من اللحظات ، وفى كل زمان ومكان .

واشتهر (ﷺ) بينهم بالأمانة ، والحكمة وكل فضيلة كريمة من الفضائل المثلى حتى إنهم كانوا يتحاكمون إليه فيما شجر بينهم أو اختلفوا فيه ..

ومن المواقف المذكورة المشهورة موقفه من وضع الحجر الأسود ، عندما دب الخلاف بين قريش بسبب وضعه ، فإنهم عندما انتهوا فى بناء الكعبة إلى هذا المكان ، قالت كل قبيلة : نحن أحق بوضعه واختلفوا ، وكادت تقع فتنة كبرى ، خيف منها القتال ثم انتهوا إلى أن يتحاكموا إلى أول من يدخل عليهم من باب بنى شَيْبَة ، فيكون هو الذى يقضى بينهم .. فكان أول من دخل هو الرسول (ﷺ) ، فلما رأوه ، قالوا : هذا هو الأمين ، قد رضينا بما قضى بيننا ثم أخبروه الخبر ، فقال (ﷺ) :

هَلُمّ إِلَىّ ثَوْبًا ، فَأُتِىَ به فَأَخذَ الرُّكْنَ فَوَضَعَهُ فِيهِ بِيَدِهِ ، ثم قال : **لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوب ، ثُمَّ ارْفَعُوه جَميعًا ، فَفَعَلوا ، حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ ، وَضَعَهُ هُوَ بِيَده ثُمَّ بَنَى عَلَيْهِ .**

تِجَـــارَةٌ وأمــانـــــةٌ

واشتغل (ﷺ) بالتجارة ، وخرج فى تجارة لخديجة بعد أن عرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجرا ، خرج مع غلام لها يقال له : «مَيْسَرَة» ، ولما قدم الشام ، نزل رسول الله (ﷺ) فى ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان فاطلع الراهب إلى «مَيْسَرَة» ، فقال له : **مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِى نَزَلَ تَحتَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ؟** فقال له (مَيْسَرَة) : **هَذَا رَجُلٌ مِن قُرَيشٍ مِن أَهلِ الحَرَمِ** ، فقال له الراهب : **مَا نَزَلَ تَحتَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ قَطٌّ إلاَّ نَبِىٌّ ..**

وبعد أن انتهى من رحلة التجارة ، قفل راجعا إلى مكة ومعه (مَيْسَرة) ، فكان (مَيْسَرَة) – فيما يروى – إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس .. فلما أخبر مَيْسَرَةُ (خديجَة) بما كان من نشأته .. رغبت فى الزواج منه ، وذكر ذلك لأعمامه ، فخرج معه حمزة بن عبد المطلب ، ويقال : أبو طالب وهو الذى خطب خطبة النكاح ، ولعلهما خرجا معا ..

والمتصفح لمرحلة الشباب هذه ، يرى فيها الطهر والنبل والنشأة المثالية العالية . التى يجد عندها القدوة الطيبة ، والأسوة الحسنة التى يجب على شباب الإسلام أن يقتدوا بها فى حياتهم منتهجين فيها نهج الإسلام ورسول الله (ﷺ) .

حَوْلَ كَيْفِيَّةِ الْوَحْى

عنيت السُّنَّة الشريفة بتوضيح كيفية الوحى ، وبيان الصور والمراتب التى كان فيها من ذلك ما رواه الإمام البُخارِىُّ فى صحيحه – بسنده المتصل – عن عائشة (رضى الله عنها) أن الحارث بن هشام (رضى الله عنه) سأل رسول الله (ﷺ) فقال : يارسول الله ، كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله (ﷺ) : «**أَحْيَانًا يأتِينِى مِثْل صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ ، وهو أَشَدُّه عَلَىَّ فَيُفصَمُ عَنِّى ، وقد وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ وأحيانا يتمثَّلُ لِى المَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِى فَأَعِى ما يقولُ**» .

قالت عائشة (رضى الله عنها) : «**ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جَبِيْنه لَيتفصَّدُ عَرقًا**»(١)

وليست ظاهرة الوحى محصورة فى هاتين الحالتين : مثل صلصلة الجرس و«تمثُّل المَلَكِ رجلا» .. وإنما هناك حالات أخرى زائدة على ذلك فمن حالات صِفَةِ الوحى : مجيئه كَدَوِىّ النحل ، والنفث فى الروع ، والإلهام ، والرُّؤيا الصالحة ، والتكليم ليلة الإسراء بلا واسطة .

ومن حالات صفة حامل الوحى: مجيئه فى صورته التى خلق عليها: له ستمائة جناح ورؤيته على كرسى بين السماء والأرض وقد سَدَّ الأُفقَ .

---

(١) رواه البخارى .

وعلى هذا فلا يُراد بالحالتين المذكورتين فى الحديث حصر الوحى فيهما وأنهما تحملان على الغالب.. أو أن سواهما من الحالات وقع بعد السؤال و لم يتعرض الحديث لصفتى المَلَك المذكورتين وهما : مجيئه على الهيئة التى خلق عليها ، ورؤيته على كرسى بين السماء والأرض لم يتعرض لهما لندورهما فقد ثبت عن عائشة (رضى الله عنها) أنه (ﷺ) لم يره كذلك إلا مرتين ، أو لم يأته فى تلك الحالة بوحى ، أو أتاه به فكان على مثل صلصلة الجرس فإنه بَيَّنَ صفة الوحى لا صفة حامله(١) .

ولقد دل القرآن الكريم على أهم وأظهر حالات الوحى وهى الحالات التى عزى إليها العلماء الحالات الأخرى قال «الله» تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾(٢)

وقد ذكر ابن القيم (رحمه الله) مراتب الوحى فأوصلها إلى سبع مراتب .

الأولى : الرُّؤيا الصالحة وكانت مبدأ وحيه (ﷺ) وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

---

(١) فتح البارى .   (٢) الشورى : ٥١ .

الثانية : ما كان يلقيه المَلَك فى رَوْعِهِ وقلبه ، من غير أن يراه كما قال النبى (ﷺ) :

«إن رُوحَ القُدُس نَفَثَ فى رَوْعِي : أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا فَاتَّقُوا الله وأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ وَلاَ يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ الله فَإنَّ مَا عِنْدَ الله لاَ يُنالُ إلاَّ بِطَاعَتِهِ» .

الثالثة : أنه (ﷺ) كان يتمثل له المَلَكُ رَجُلاً فيخاطبه حتى يعى عنه ما يقول له ، وفى هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانا .

الرابعة : أنه كان يأتيه فى مثل صَلْصَلَةِ الجَرَسِ وكان أشده عليه فيتلبس به المَلَك حتي أن جبينه ليتفَصَّد عَرَقًا فى اليوم الشديد البرد ، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولقد جاءه الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

الخامسة : أنه يرى الملك فى صورته التى خلق عليها فيوحى إليه ما شاء «الله» أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين كما ذكر «الله» ذلك فى سورة النجم .

السادسة : ما أوحاه «الله» إليه وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها .

السابعة : كلام الله له منه إليه بلا واسطة مَلَكٍ كما كَلَّم «الله» مُوسى بن عمران وهذه المرتبة هى ثابتة لموسى قطعا بنص القرآن وثبوتها لنبينا (ﷺ) فى حديث الإسراء .

وقد زاد بعضهم **مرتبة ثامنة** وهى : تكليم «الله» له كِفَاحًا من غير حجاب وهذا على مذهب من يقول: أنه (ﷺ) رأى ربه تبارك وتعالى ، وهى مسألة خلاف بين السلف والخلف وإن كان جمهور الصحابة - بل كلهم - مع عائشة كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمى إجماعا للصحابة . أ . هـ [1] .

وجمع الحافظ ابن حجر بين الحالات المذكورة وهى كثيرة وبين الحالتين الواردتين فى الحديث وما جاء به القرآن الكريم مُوَفِّقًا بينها فقال :

وأما النَّفْثُ فى الرَّوْعِ : فيحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين ،

وأما فنون الوحى : فَدَوِيُّ النَّحْلِ لا يُعَارِضُ صَلْصَلَةَ الجرس لأن سماع الدَّوِيِّ بالنسبة للحاضرين كما فى حديث عمر : «**يسمع عِنْدَه كَدَوِيِّ النَّحْلِ**» والصلصلة بالنسبة إلى النبى (ﷺ) فشبهه عمر بدوى النحل بالنسبة إلى السامعين وشبهه هو (ﷺ) بصلصلة الجرس بالنسبة إلى مقامه .

---

(١) من كتاب زاد المعاد جـ١ ص ٣٣ وما بعدها .

فإذا أتاه الملك فى صلصلة الجرس نفث حينئذ فى روعه .. **وأما الإلهام** فلم يقع السؤال عنه لأن السؤال وقع عن صفة الوحى الذى يأتى بحامل **وكذا التكليم ليلة الإسراء** .

وأما الرؤيا الصالحة : فقال ابن بطال لا ترد لأن السؤال وقع عما ينفرد به عن الناس لأن الرؤيا قد يشركه فيها غيره والرؤيا الصادقة وإن كانت جزءا من النبوة فهى باعتبار صدقها لا غير وإلا لساغ لصاحبها أن يسمى نبيا وليس كذلك ويحتمل أن يكون السؤال وقع عما فى اليقظة أو لكون حال النيام لا يخفى على السائل فاقتصر على ما يخفى عليه أو كان ظهور ذلك له (ﷺ) فى المنام على الوجهين المذكورين لا غير ، قال الكرمانى : وفيه نظر وقد ذكر بعضهم أن الوحى كان يأتيه على ستة وأربعين نوعا فذكرها وغالبها من صفات حامل الوحى ومجموعها يدخل فيما ذكر. أ . هـ (فتح البارى)

والصلصلة : هى صوت ينبعث من وقوع الحديد بعضه على بعض ثم أطلق على كل صوت له طنين ، وقال الكرمانى : الجرس ناقوس صغير أو سطل فى داخله نحاس يعلق منكوسا على البعير فإذا تحرك تحركت النحاسة فأصابت السطل فحصلت الصلصلة أ . هـ .

– ولكن كيف وقع تشبيه الوحى وهو محمود – بصوت الجرس وهو مذموم ؟ لصحة النهى عنه .

وأجيب عن ذلك بأنه لا يلزم من التشبيه تساوى المشبه والمشبه

به من جميع الوجوه بل يكفى الاشتراك فى صفة ما ، فذكر ما ألفه السامعون تقريبا للعقول ، ثم أن للصوت قوة وطنينا ، وقد وقع التشبيه به من حيث القوة لا من حيث الطرب ، فقد وقع التنفير منه .

- والمراد بالصلصلة المذكورة : صوت الملك بالوحى وقال الخطابى : يريد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتبينه أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد . وقيل : بل صوت حفيف أجنحة الملك .

والحكمة فى تقدمه أن يقرع سمعه الوحى فلا يبقى فيه مكان لغيره .

- وإنما كان هذا الوضع بالنسبة للوحى أشد الأنواع لأن الفهم من كلام مثل الصلصة أشكل من الفهم من كلام الرجل بالتخاطب المعهود .

وفائدة الشدة : ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفى والدرجات ، ومعنى «**يفصم**» يقلع وينجلى ما يغشاه وأصل الفصم القطع . ومعنى قوله (ﷺ) : «**وقد وعيت عنه ما قال**» : أى القول الذى جاء به .

والمراد بقوله : «**وأَحْيَانا يتمثَّل لى المَلَكُ رَجُلاً**» أى يتصور ، واللام فى المَلَك للعهد وهو جبريل .. وظهور الملَك فى صورة رَجُلٍ له أثره فى المؤانسة للمُخَاطَب .

وقد جاء التعبير متغايرا فى الحالتين ففى الأول قال : «**وَقَدْ وَعيت**» بلفظ الماضى وفى هذه الحالة الثانية قال: «**فَأَعِي**» بلفظ الاستقبال لأن الوعى حصل فى الأول قبل الفصم وفى الثانى حصل حال المكالمة ويدل قول السيدة عائشة (رضى الله عنها) : «**ولَقَدْ رَأَيْته يَنْزِلُ عَلَيْه الوَحْي فى اليومِ الشّديدِ الْبَرْدِ فيفصم عَنْهُ وإن جَبِينَه لَيَتَفَصَّد عَرَقا**» يدل هذا على أنه كان يعانى شدة من نزول الوحى لما فيه من مخالفة العادة وهو كثرة العَرَقِ مع شدة البرد فإن هذا يدل على أمر طارئ شديد على ما تحتمله الطباع البشرية .

ولقد كانت عناية الكتاب والسُّنَّة بظاهرة الوحى عناية فائقة تكشف عن كيفية الوحى وأول بدئه ، وما يصحب الوحى من سمات ومظاهر .. إلى غير ذلك من الأمور .

ولما كان موضوع الوحى هو الموضوع الأول والأكبر للإسلام فهو طريق وصول العقيدة والتشريع والأحكام والأخلاق ومن أجل هذا اتجه إليه محترفو الغزو الفكرى ، وصَوَّبَ أعداء الإسلام سهامهم إليه محاولين التشكيك والتلبيس والخلط بينه وبين الحديث النفسى والإلهام وما إلى ذلك مما خاضوا فيه بتبجح وتمحل .

ولكن أنى لهم ذلك ؟ وظاهرة الوحى ثابتة ثبوتا واضحا وقويا ومتواترا ، ودل عليها الكتاب والسُّنَّة والإجماع مما يُفْحِم المنكرين والمكابرين والمعاندين .

المرحَلَــةُ السِّرِّيَّــــة

سارت الدعوة الإسلامية فى أول عهدها سِرِّيَّة ، وشرع رسول الله (ﷺ) يدعو إلى عبادة «الله» وحده لا شريك له ، وترك عبادة الأوثان ، فى خفاء وحيطة ، وكتمان وحذر ، لأن قريشا كانت فى غاية التعصب لما هى عليه من وثنية ، ولما درج عليه الأبناء منهم بعد الآباء لهذا لم يجهر الرسول (ﷺ) بالدعوة فى بادئ أمرها ، ولم يأته أمر السماء بالجهر بها ..

وللدعاة والمصلحين الأسوة الحسنة فى رسول الله (ﷺ) .. فعليهم أن يتَّبعوا فى دعوتهم المنهج الأمثل ، وأن يدعوا إلى «الله» على بصيرة وهدى ؛ فيُسِرُّون بالدعوة حين يرون الأمر فى حاجة إلى السرّ ، ويجهرون بها حين يرون الجو ملائما للجهر .

وكان أول من آمن به خديجة (رضى الله تعالى عنها) ، فقد صدقت بالدعوة من أول وهلة ، وآمنت بما جاء (ﷺ) به ، وآزرته ، وخفَّفت عنه كل عناء ، وهوَّنت عليه أمر الناس .

وآمن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) ، وصدق برسول الله (ﷺ) وبما جاء به من ربه وعمره إذ ذاك عشر سنين .

ثم أسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله (ﷺ) ثم جاء الخير الكبير بإسلام أبى بكر الصديق (رضوان الله تعالى عليه) حيث قام بالدعوة

إلى الإسلام ، وكان مألوفا لقومه، ومعروفا ، وكان تاجرا مشهورا بالمروءة والمعروف وبالحق .. فأسلم بدعوته ودخل الإسلام على يديه : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله .

وقد جاء بهم أبو بكر (رضى الله عنه) إلى رسول الله (ﷺ) فأسلموا وصلوا واستجابوا «لله» ولرسوله .

وكان رسول الله (ﷺ) يقول :

«وَمَا دَعَوْتُ أحدًا إِلَى الإِسْلاَمِ إِلا كَانَتْ عِنْدَهُ كَبْوَةٌ - أى تأخير - **ونَظَرٌ وتَرَدُّدٌ ، إلا مَا كَانَ مِنْ أَبِى بَكْرِ بنِ أَبِى قُحَافة ، وما عَكَمَ عَنْهُ** - أى تلبث - **حِينَ ذكرتُهُ لَه ، وما تَرَدَّدَ إِلَيْهِ .**

وحسبه كرامة ومثوبة ، ومنزلة وفضلا قول رسول الله (ﷺ) فى شأنه :

«إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَىَّ فِى مَالِهِ وصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ ، ولو كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً ، لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً ولَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلامِ لا تبقينَّ فى المَسْجِدِ خوخَةٌ إِلاَّ خوخة أَبِى بَكرٍ»[١] .

ثم دخل الإسلام بعد ذلك أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة ، والأرقم بن أبى الأرقم وغيرهم .

---

(١) رواه مسلم .

وظل العدد يزداد حتى قارب الأربعين .. وكانوا فى هذه المرحلة السِّرِّيَّةِ للدعوة لا يستطيعون أن يجابهوا قريشًا ، ومجالسها العامة .. بل كانوا إذا أرادوا القيام بعبادة ذهبوا إلى شِعابِ (مكة) مستخفين عن العيون بعيدين عن الناس حيث لا يراهم أحد .

وكانوا يلتقون بالنبى (ﷺ) سِرًّا .. ولكن لما كثر العدد اختار لهم رسول الله (ﷺ) دار الأرقم مقرا ، وفى هذه الدار كان يجتمع رسول الله (ﷺ) بالجماعة المسلمة الأولى ، وكانت هذه الدار بمكة على الصفا ، وفيها أسلم عدد كبير .. وكان يعلمهم رسول الله (ﷺ) أمور دينهم ، ويقرئهم القرآن الكريم .

وقد مكثوا فى دار الأرقم حتى تكاملوا أربعين رجلا من المسلمين السابقين المخلصين وكان آخرهم إسلاما عمر بن الخطاب وبعد ذلك خرجوا .

وفى دار الأرقم هذه كان يجتمع هؤلاء السابقون برسول الله (ﷺ) والإسلام ما يزال بعد فى أول عهده .. إنه فى مرحلته السرية ، ولذلك ما إن ترامى الخبر إلى سمع قريش إلا وسعت جاهدة فى محاولة القضاء عليه .

وكان عمر بن الخطاب - قبل أن يدخل الإسلام - قد فكَّر وقدَّر وسعى لقتل رسول الله (ﷺ) ليريح قُرَيشًا ، إنه قد سبَّ الآلهة ، وفرَّق الأمْرَ ، ولما ذهب إلى هذه الوجهة الخاسرة الضالة لقيه فى

الطريق «نعيم بن عبد الله» فلما أخبره الخبر قال له نعيم : ياعمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدًا ؟

أفلا ترجع إلى أهل بيتك وتقيم أمرهم ؟

وكانت أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما ، فقفل عمر راجعا إليهما ، ودخل عليهما ، وكان عندهما خبَّاب بن الأرتّ ومعه صحيفة فيها «سورة طه» يُقْرِئُهُمَا إياها فلما سمعوا حِسَّ عمر تغيب خبَّابٌ ، وأخذت فاطمة الصحيفة ، وكان عمر قد سمع - عندما اقترب من البيت - قراءة خباب عليهما فلما دخل قال : **مَا هَذِهِ الهينمة الَّتِى سَمِعتُ** .

قالا له : **مَا سَمِعْتَ شَيْئًا** .

قال : **بلى و« الله » لقد أُخبِرْت أَنَّكُما تَابَعْتُمَا مُحَمَّدًا عَلَى دِينِهِ** ، وبطش بزوج أخته سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفَّه عن زوجها ، فضربها ؛ فشجَّها .

فلما فعل ذلك ، قالت له أخته وختنه : نعم قد أسلمنا ، وآمنا بـ «الله» ورسوله ، فاصنع ما بدا لك .. فلما رأى عُمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى - أى رجع - وقال لأخته : **أعطِينى هَذِهِ الصَّحِيفَةَ الَّتِى سَمِعتُكم تَقرأُونَ آنِفًا ، أَنظُرُ مَا هَذَا الَّذِى جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ** ، وكان عمر كاتبا ، فلما قال ذلك ، قالت له

أخته : **إنَّا نخشَاكَ عَلَيهَا** ، قال : **لاَ تَخافى** وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه فقلت له : **يَا أَخِى ، إِنَّكَ نَجِسٌ عَلَى شِرْكِكَ ، وَإِنَّهُ لاَ يَمسّهَا إلاَّ الطَّاهِرُ** ، فقام عمر فاغتسل ؛ فأعطته الصحيفة وفيها «طه» فقرأها :

﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ ﴾[1]

فلما وصل إلى قوله تعالى :

﴿ لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ۝١٥ ﴾[2]

قال : **مَا أَطيب هَذَا الكَلاَمَ وَأَحسَنه** .. فلما سمع ذلك خَبَّاب خرج إليه ، فقال له : **يَا عُمَر ، وَ «الله» إنّى لأَرجُو أَن يَكُونَ «الله» قَد خصَّكَ بدَعوَةِ نَبيِّهِ ، فَإِنِّى سَمِعتُه (ﷺ) أَمسِ وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ أَيِّدِ الإسلاَمَ بِأَبِى الْحَكَمِ بنِ هشامٍ ، أو بِعُمَر بن الخَطَّابِ ..** فـ «الله» «الله» ياعُمَر .

فقال له عند ذلك عمر : **فَدُلّنِى يا خَبّابُ عَلَى مُحَمَّدٍ حَتَّى آتِيَه فَأسلم** فقال له خباب : **هُوَ فِى بَيْتٍ عِنْدَ الصَّفَا ومَعَه نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ** فأخذ عمر سيفه فتوشَّحه ثم ذهب إلى هناك فضرب عليهم الباب فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله (ﷺ) فنظر من خلال الباب فرآه مُتوشِّحًا السيف فرجع إلى رسول الله

---

(١) طه : ١ ، ٢ .   (٢) طه : ١٥ .

(ﷺ) وهو فزع ، فقال : **يَا رَسُولَ الله هَذَا عُمَرُ بنُ الخطَّابِ مُتوشِّحًا السَّيفَ** . فقال حمزة بن عبد المطلب : **فَأْذَنْ لَهُ فإنْ كَانَ جَاءَ يُرِيدُ خيرًا بَذَلْنَاهُ لَهُ وَإِنْ كَانَ جَاءَ يُرِيدُ شَرًّا قَتَلْنَاهُ بِسَيْفِهِ** .

فقال رسول الله (ﷺ) : **ائْذَن لَهُ** ، فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول الله (ﷺ) حتى لقيه فى الحجرة فأخذ حجزته – وهو موضع شد الإزار – أو أخذ بمجمع ردائه ثم جبذه به جبذة شديدة ، وقال : **مَا جَاءَ بِكَ يَا ابنَ الخطَّاب ، فوالله مَا أَرَى أَنْ تَنْتَهِى حَتَّى تَنْزِلَ بِكَ قَارِعَةٌ** – أى دَاهِية – ؟

فقال عمر : **يَارَسُولَ الله جِئْتُكَ لأُؤمِنَ بِـ «الله» وَبِرَسُولِهِ وَبِمَا جَاءَ مِنَ عِنْدِ «الله»** ، فكبّر رسول الله (ﷺ) تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله (ﷺ) أن عمر قد أسلم .

وعز الإسلام بدخول (عمر) فى الإسلام فبدخوله ، ودخول (حمزة) قوى أمرهم ، وعَزّوا ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله (ﷺ) ويحميانه من خصومه ومن كل أذى يلاحقه من أعدائه .

وبدخول عمر فى الإسلام تمت نهاية المرحلة السرية للدعوة فلم يرض عن اختفاء المسلمين حين صلاتهم وإنما راح (عُمَر) يناضل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه .

فكان إسلامه – بحق – فتحا للمسلمين ، يقول عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) :

إن إسلام عمر كان فتحا ، وإن هجرته كانت نصرا ، وإن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه .

وهكذا نرى كيف شقت الدعوة طريقها بين غيوم الشرك الكثيفة فى جو ملبد خانق .. فشاء «الله» ، تعالى للفجر أن ينبثق ، ولشمس الهدى أن ترسل أشعتها إلى كل الأرجاء .. فإذا بالصفوة المختارة قد سبقت إلى الإسلام وحملت أشعة الخير تهدى الحيارى وتنافح عن الإسلام فى كل زمان ومكان .

ولئن كان هذا شأن القلة المؤمنة فى زمن يسير ، وفى جو رهيب ، وفى خفاء وسرية ، وفى بساطة عيش وقلة ذاتَ اليد .. ولكنهم كانوا أقوياء بـ «الله» شجعان بالإيمان ، مُسَلَّحِين بالحق والتقوى والإخلاص .

وإذا كان هذا جهادهم فى سبيل الدعوة مع قلتهم ومع ما يحيط بهم فما بال العالم الإسلامى اليوم والإسلام - بحمد الله - منتشر فى كل مكان وعدد المسلمين فى العالم من الكثرة بحيث يستطيع أن يكون أكبر قوة داعية ظافرة منتصرة .. وذلك بتوثيق الصلة بـ «الله» والاعتصام بحبله ، والتضامن الإسلامى على أكبر المستوى .. و« الله » الموفق والهادى إلى أقوم السبل .. ونسأل «الله» تعالى أن يجمع المسلمين ، وينصرهم نصرا مُؤَزَّرا ، وما النصر إلا من عند «الله» العزيز الحكيم .

الْجَهْـــرُ بَالدَّعْـــوَةِ

وبعد أن مكثت الدعوة سرية ثلاث سنين ، شاء « الله » تعالى لرسوله (ﷺ) ، أن يجهر بها : فأنزل عليه قوله سبحانه :

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾(١)

كما أمره «الله» أن يُنْذِرَ عشيرته الأقربين فقال تعالى :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾(٢)

فقام (ﷺ) ، بتنفيذ الأمر الإلٰهى ، فصعد على الصفا مناديا القوم : «**يَابَنِي فهر .. يَا بَنِي عَدِى**» ، حتى اجتمعوا ، فقال لهم رسول الله (ﷺ) : **أَرأيتم لَوْ أَخبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِى تُرِيدُ أَنْ تغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِّى** ؟ قالوا : **مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا** . قال : **فَإِنِّى نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَى عَذَابٍ شَدِيد** .

ثم قام (ﷺ) بتنفيذ الأمر الإلٰهى الثانى ، وهو : أن ينذر عشيرته الأقربين فجمعهم وقال لهم :

يَا بَنِي كَعْبِ بْن لُؤَىّ انْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَابنى مُرَّة بْن كَعْب انْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّار ، يَا بَنِي عَبْدِ المطَّلِبِ انْقِذُوا أَنْفُسَكُم

---

(١) الحجر : ٩٤ . (٢) الشعراء : ٢١٤ ، ٢١٥ .

مِنَ النَّارِ ، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِى نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ لاَ أَمْلِكُ لَكُم مِنَ اللهِ شَيْئًا ، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلَّهَا بِبِلاَلِهَا - أى أصلها بصلتها - فتعللوا بتقاليدهم الموروثة ، وباتباع ما كان عليه آباؤهم فلما عاب آلهتهم ، وسفه تقاليدهم وأحلامهم عادوه وتنكروا له ولدعوته .

وقد تعرض (ﷺ) إلى كثير من الأذى والاضطهاد ، روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال :

بينما النبى (ﷺ) يصلى فى حجر الكعبة ، إذ أقبل عليه عقبة بن أبى معيط ، فوضع ثوبه على عنقه ، فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبى (ﷺ) ، وقال : **أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّى اللهُ ؟**

كما تجرع أصحابه (رضوان الله تعالى عليهم) ، الكثير من صنوف الأذى والعذاب .

عن خباب بن الأرتّ أنه قال : **أَتَيتُ النبى (ﷺ) وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَه وَهُوَ فى ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَقَدْ لَقِيْنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً ، فَقُلْتُ :** يَارَسُولَ اللهِ ، أَلاَ تَدْعُو اللهَ لَنَا ؟ فَقَدَ وَهُوَ مُحْمَرُّ الْوَجْهِ ، فَقَالَ : **«لَقَد كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يمشط بمشاط الحَدِيدِ مَا دُونَ عظامه مِنْ لَحْمٍ أو عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ عَنْ دِينِهِ ، وَلَيُتِمَّنَ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلى حَضْرَمَوت لا يخَافُ إِلاَّ اللهَ»**(١)

---

(١) رواه البخارى .

وهكذا بذل المشركون ما بذلوه من صنوف الأذى والعذاب ، ووقفوا فى طريق الدعوة وفى طريق الإسلام بالمرصاد ، ولكنهم واجهوا قلوبا قوية الإيمان ، وأرواحا متصلة بالسماء ، لا يصرفها عن دينها تنكيل أو تعذيب ، بل كانوا يستعذبون العذاب فى سبيل دينهم وعقيدتهم وفى سبيل الله ورسوله ، فلما رأى المشركون أن الرسول (ﷺ) ماض فى دعوته وأن أتباعه يزيدون ولا ينقصون ، ولا يرتد أحد منهم ، ورأوا وسمعوا كيف تناهض دعوته معتقداتهم ، وتسفه أحلامهم . رأوا أن سياسة التعذيب والإيذاء غير مجدية فى صده وصد أتباعه ، ورأوا عمه قد قام دونه . فلجأوا إلى حيلة أخرى : حيث مشى جماعة من أشراف قريش إلى عمه أبى طالب ، وقالوا له :

يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفَّه أحلامنا وضلَّل أبناءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه : فردهم أبو طالب برفق ولين وانصرفوا .. ومضى (ﷺ) ، فى إظهار دين الله ، وفى الدعوة إليه ، فعاودوا الكَرَّة مَرَّة أخرى على أبى طالب بعد أن اشتد الأمر بينه وبينهم ، فقالوا له :

يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ، ومنزلة فينا ، وإنَّا قد استنهيناك من ابن أخيك ، فلم تنهه عنا ، وإنَّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

وعندئذ عظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، وفى نفس الوقت لا يمكن أن يفرط فى رسول الله (ﷺ) ولا فى حمايته فقال أبو طالب للرسول (ﷺ) :

يَا بنَ أَخِى ، إنَّ قَومَكَ قَد جَاءُونى فَقَالُوا لِى كَذَا وَكَذَا ، فَأبقِ عَلَىَّ وَعَلَى نَفسكَ ، وَلاَ تُحَمِّلنى مِنَ الأَمرِ مَالاَ أُطِيقُ ، قال : فظن رسول الله (ﷺ) أنه قد بَدَا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه ، فأجابه رسول الله (ﷺ) إجابة كلها قوة وإيمان ، وصاح بعبارته التى ظلت على مر التاريخ عنوان الشجاعة فى الحق ، وآية الآيات على التفانى فى سبيل العقيدة قال :

«يَاعَمّ ، وَاللهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فى يَمِينِى ، وَالْقَمَر فِى يَسَارِى عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ الله ، أَوْ أَهْلَكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ» .. ثم استعبر رسول الله (ﷺ) ، فبكى ثم قام ، فناداه أبو طالب قائلا له :

أَقْبِل **يا بنَ أَخِى** ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ ، فقال : **اذْهَبْ يَا بْنَ أَخِى فَقُل مَا أَحْبَبْتَ ، والله لاَ أُسْلمُكَ لِشَىءٍ أَبَدًا .**

وبهذا تكون قد فشلت حيلة المشركين هذه ، فى محاولتهم فصل عمه أبى طالب عنه ، وتخليه دونه .. بل إنه حتى لو حدث هذا فإن رسول الله (ﷺ) لن يتخلى عن دعوته حتى لو قايضوه عليها بالشمس والقمر فى يديه .. بل حتى لو هلك فى سبيل ذلك .

تلك هى الشجاعة فى الحق والاعتصام بالدين ، والغيرة عليه ، ولنا فى رسولنا (ﷺ) الأسوة الحسنة ، ولجميع الدعاة والعلماء الذين هم ورثة الأنبياء خير زاد من سيرة رسول الله (ﷺ) ، وعدم تخليه لحظة عن دعوته إلى الحق ، حتى ولو أعطى النيرين ، أو هلك دون ذلك .

ونحن إذ نواجه العدوان على الإسلام والمسلمين ، ومحاربة الفكر الإسلامى ، نرى أن هذا ليس بجديد علينا ، ولا هو بغريب من أعداء الإسلام ، فالحق والباطل فى صراع إلى يوم القيامة ، ومعركة الخير والشر مستمرة ..

ولكن واجبنا أن نتسلح أولا : بالإيمان ، وأن يقترن بالعمل ، وأن نعد جيلا من الدعاة ، يكونون بمثابة الجنود الرابضين على الخطوط ، يذودون عن حمى الإسلام ، ويردون كل شبهة تثار ، حتى يأخذ الجهاد فى معركة الدعوة طريقه جنبا إلى جنب مع الجهاد فى ميدان القتال .. والله الهادى إلى سواء السبيل .

مِنْ خَصَائِصِ الْبَيْتِ النَّبوِىِّ

لبيت النبوة سماته وخصائصه .. التى خصه «الله» تعالى بها وميزه لحمل تراث النبوة وتلقى الوحى الإلٰهى .. وليس المال ولا زخرف الحياة الدنيا ، ولا مباهجها الزائفة وعرضها الزائل ، وذلك ليكون المثل الأعلى ، والقدوة الحسنة ، فى الرضا والقناعة ، والصبر والاحتمال ..

وقد كان رسول الله (ﷺ) أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فهو الرؤوف بهم والعطوف عليهم .. وكانت أزواجه أمهاتهم .

قال الله تعالى :

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾[1]

وعن أبى هريرة (رضى الله عنه) عن النبى (ﷺ) قال : «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إلاَّ وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فى الدُّنْيَا والآخِرَة ، وَاقْرءُوا إنْ**

---

(١) الأحزاب : ٦ .

شئتم - ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فأيُّما مُؤمِن تَرَكَ مَالاً فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُه مَنْ كَانُوا ، وَإِن ترك دَيْنًا أَوْ ضِياعا فَلْيَأْتِنى فأنا مَوْلاَهُ »[1] .

● ولقد ضرب (ﷺ) أروع الأمثلة فى حياة التقشف والزهد والقناعة والرضا ، وجعل من نفسه وبيته المثال المحتذى والأسوة الحسنة فى العزوف عن الدنيا ، وعن الغرور بها ، وفى الإعراض عن زهرتها .

لقد أخذ نفسه وأهله بالتقشف والزهد والقناعة ، لدرجة أنه لم يشبع ثلاثة أيام تباعا من خبز ، وعن عائشة (رضى الله عنها) أنها قالت : **مَا شَبِعَ رَسُولُ الله (ﷺ) ثَلاثَةَ أيَّامٍ تِبَاعًا مِن خُبز حَتَّى مَضَى سَبِيلَهُ**[2] .

بل إنه (ﷺ) لم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير ، فعن عبد الرحمن بن عوف (رضى الله عنه) أنه قال : **هَلَكَ رَسُولُ الله (ﷺ) ، وَلَم يَشبَع هُوَ وَأَهْل بَيتِهِ مِن خُبزِ الشَّعِيرِ**[3]

وكانت بيوته (ﷺ) على درجة عالية من الرضا والقناعة ، لا سيما عندما كان العيش قليلا .. ولا يوجد لدى أمهات المؤمنين من الأطعمة ما يطهى بالنار مدة طويلة ..

---

(١) رواه البخارى .　　(٢) رواه مسلم .　　(٣) رواه الترمذى .

عن عائشة (رضى الله عنها) قالت لعروة : **يَابْنَ أُخْتِى إن كُنَّا لَنَنْظُرُ إلى الهِلاَلِ ثُمَّ الهلالِ ، ثَلاَثَةَ أَهِلَّةٍ فى شَهْرَينِ ، وَمَا أُوْقِدَتْ فى أَبْيَاتِ رَسُولِ الله** (ﷺ) **نارٌ** ، فقال : **يَا خَالَةُ مَا كَانَ يُعَيِّشُكُم؟** قالت : **الأَسْوَدَيْنِ ، التَّمرُ وَالمَاءُ ، إلاَّ أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ الله** (ﷺ) **جيرانٌ مِنَ الأَنْصَارِ ، وكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ ، وكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ الله** (ﷺ) **مِنْ أَلبَانِها فَيسْقِينَا ..**(١)

وكان هذا الزهد والتقشف وحياة القناعة والخشونة ، مثلا يحتذى فى الصبر والرضا ، يجوع يوما فيصبر ، ويشبع يوما فيشكر ويعيش حياته ، بين التضرع والدعاء ، والشكر والثناء .

قالت عائشة (رضى الله عنها) : **وَلَقَدْ مَاتَ وَمَا فِى بَيْتِى شَىءٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ ، إلا شَطْرُ شَعِيرٍ فى رفٍّ لى** ، وقال لى : **إلى عُرِضَ عَلَّى أَنْ يُجْعَلَ لى بَطْحَاءُ مَكَّة ذَهَبًا** فقلت : **لاَ يَارَبِّ ، أَجُوعُ يَوْمًا فَأَصْبِرُ ، وَأَشْبَعُ يومًا فَأَشْكُرُ ، فَأَمَّا الْيَومُ الَّذى أَجُوعُ فِيهِ ، فَأتضَرَّعُ إليكَ وَأَدْعُوكَ ، وَأَمَّا الْيَومُ الَّذِى أَشْبَعُ فِيهِ ، فَأَحْمَدُكَ وَأُثنى عَلَيْكَ** (٢) .

ولقد أخذ (ﷺ) حياته على هذا النحو ، على الرغم مما كان فى وسعه ، من أن تكون له بطحاء مكة ذهبا .. ولكنه الرضا والقناعة ،

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه الشيخان .

والأسوة الحسنة التى يجب على أمته (ﷺ) أن تتوخاها فلا تغرها الحياة ولا يغرها بـ «الله» الغرور .

فلقد عرض عليه كبراء القوم مقاليد الأمر وعرضوا عليه المال والجاه والسلطان والسيادة لكنه رفض بإباء وشمم وقوة لا نظير لها لأنه ليس طالب مال ولا جاه وإنما جاء إلى الحياة وأرسل إلى الناس شاهدًا ومبشّرًا ونذيرًا وداعيا إلى «الله» بإذنه وسراجًا منيرًا .

وكانت هذه الحياة إعدادا أو تهيئة للدار الآخرة وليكون بيت النبوة مثالا يحتذى وقدوة للناس ، وحين طلب أمهات المؤمنين من رسول الله (ﷺ) النفقة نزلت آية التخيير والتى تخيرهن بين الحياة الدنيا وزينتها وبين «الله» ورسوله والدار الآخرة .

عن عائشة (رضى الله عنها) قالت : لما نزلت آية التخيير بدأ بى رسول الله (ﷺ) فقال : **يَا عَائِشَةُ إِنِّى عَارِضٌ عَلَيْكِ أَمْرًا فَلاَ تُوَافِقِينى فِيهِ بِشَىْءٍ حَتَّى تَعْرِضِيه عَلَى أَبَوَيكِ** - أبى بكر وأم رومان - فقلت : **يَا رَسُولَ الله مَا هُوَ ؟** قال (ﷺ) :

قال الله عز وجل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ

سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾[١]

قالت : **فإنِّى أُرِيدُ الله وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ أؤامر فى ذلِكَ أبوىَّ** - أَبَا بَكرٍ وَأُم رُومان - فَضَحكَ رسول الله (ﷺ) ثم استقرأ الحُجَرَ فقال : «**إنَّ عَائِشَةَ (رضى الله عنها)** قالت : «**كَذَا وَكَذَا**» فقلن : **وَنحن نَقُولُ مِثل مَا قَالَت عَائِشَةُ (رضى الله عنهم كلهن)**[٢] .

ومما اختص «الله» به أمهات المؤمنين أن من يأت منهن بفاحشة مبينة - وهى النشوز وسوء الخلق - يضاعف لها العذاب ضعفين فى الدنيا وفى الآخرة وأن من يطع «الله» ورسوله منهن يؤتها أجرها مرتين.

قال الله تعالى :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾[٣]

(١) الأحزاب : ٢٨ - ٢٩ .
(٢) رواه ابن أبى حاتم .
(٣) الأحزاب : ٣٠ - ٣١ .

ويمتن «الله» عليهن بلطفه ، حيث خصهن ببلوغ تلك المنزلة وأنهن أهل لذلك حيث أنعم «الله» عليهن بأن جعلهن فى بيوت تتلى فيها آيات «الله» تعالى والحكمة قال سبحانه:

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾(٢)

ويعرج على هذا الأمر الأستاذ عباس محمود العقاد - رحمه الله - حين يتحدث عن خصوصية زواج الرسول (ﷺ) رادا فرية المفترين على مقام النبوة فيقول : لم تكن تلك الخصوصية لتمكين صاحبها من المتعة والاستغراق فى مناعم الحياة الزوجية .. فإن البيت الذى يشكو نساؤه قلة المؤونة والزينة ، لا يقال عنه : إنه بيت رجل تملكه أهواء نفسه وتغلبه على رشده ولا يمد يده لاغتراف الثروة التى تكفى زوجاته وتملى لهن فى الترف والزينة لن يكون رجلا مغلوب الحس منساقا مع غواية المتعة ووساوس الشهوات ، وليس بالرجل المخلوق لطلب اللذة من ينهض بما نهض به نبى الإسلام من عظائم الأمور فى مدى سنوات معدودات .. إلخ .

وليس معنى هذا أن فى الإسلام دعوة إلى القلة والفقر ، أو أن فيه حجرا على التمتع بطيبات الحياة .. وإنما هى القدوة المثلى والأسوة

---

(١) الأحزاب : ٣٤ .

الحسنة والنماذج العالية التى رباها الإسلام فاستهانت بزخارف الحياة أو جاه أو ثراء أو عرض من زينة الحياة الدنيا ..

أما حقيقة الدين ، فهى تجمع متطلبات الجسم والروح والدنيا والآخرة وقال الله تعالى :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ (٣١) قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ (٣٢) ﴾[١] .

- **ومن خصائص بيت النبوة** : أن الذى يتركه النبى (ﷺ) من المال يكون صدقة فلا يسرى عليه ما يسرى على أموال سائر الناس من الميراث ، فقد قال (ﷺ) : « **إنَّا مَعْشَرُ الأَنْبِيَاءِ لاَ نُورَّثُ ، وَمَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَة** » وأما قول الله تعالى - حكاية عن زكريا -

﴿ فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ ﴾[٢] .

---

(١) الأعراف : ٣١ - ٣٢ . (٢) مريم : ٥ - ٦ .

فلم يرد يرثنى مالى وإنما أراد أن يرثه الحبورة لأنه كان حبرا ويرث من آل يعقوب : أى يرث الملك .

وأما قوله تعالى :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾(١)

فالمراد : ورثه الملك والنبوة والعلم وكلاهما كان نبيا وملكا .. ومن الأدلة أيضا على أن رسول الله (ﷺ) لا يورث أنه كان لا يرث بعد أن أوحى الله إليه ، وإنما كانت وراثته أبويه قبل الوحى .

وأما منازعة فاطمة ، أبا بكر (رضى الله عنهما) فى ميراث النبى (ﷺ) فليس بمنكر لأنها لم تعلم ما قاله رسول الله (ﷺ) وظنت أنها ترثه كما يرث الأولاد أباءهم فلما أخبرها بقوله كفت .

---

(١) النمل : ١٦ .

أَثَرُ أُمَّهَاتِ المؤمنينَ فِى نَشْرِ السُّنَنِ وَالأحْكَامِ

● لأمهات المؤمنين أثر هام ، فى نشر السنة النبوية الشريفة (على صاحبها أفضل الصلاة والسلام) ..

فقد قمن (رضوان الله تعالى عليهن) بتبليغ كثير من الأحكام والأحاديث والسنن ، التى لولاهن ، لما وصلت إلينا ، وبالأخص تلك الأفعال التى كانت تقع بين رسول الله (ﷺ) وبينهن ، من الأمور الخاصة التى لا يمكن لأحد أن يطلع عليها ، و لايقف على أحكامها .

ومن أجل تلك المهمة العالية ، والرسالة الكبرى ، التى تضطلع بها أمهات المؤمنين . قال «الله» سبحانه وتعالى ووجه أمره الإلهى إليهنّ والاستقرار فى بيوتهن ، ومذاكرة الكتاب والسنة ومدارستهما ، قال الله سبحانه : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾[١]

---

(١) الأحزاب : ٣٣ - ٣٤ .

يقول قتادة وغيره : واذكرن هذه النعمة التى خصصتن بها من بين الناس ، أن الوحى ينزل فى بيوتكن ، دون سائر الناس ، والسيدة عائشة (رضى الله عنها) ، أكثر أمهات المؤمنين بهذه الغنيمة ، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة ، فإنه لم ينزل على رسول الله (ﷺ) الوحى فى فراش امرأة سواها .

ويقول ابن جرير - رحمه الله - فى الآية السابقة : واذكرن نعمة «الله» عليكن ، بأن جعلكن فى البيوت التى تتلى فيها آيات الله والحكمة وهى السنة .

وهذه أم سلمة (رضى الله تعالى عنها) قالت للنبى (ﷺ) : ما لنا لانُذكَرُ فى القرآن كما يُذكَرُ الرجال ؟ قالت : فلم يرعنى ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر قالت : وأنا أسرح شعرى ، فلففت شعرى ثم خرجت إلى حجرتى - حجرة بيتى - فجعلت سمعى عند الجريد ، فإذا هو يقول عند المنبر : (**إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات** ..) إلى آخر الآية [١]

والآية الكريمة من سورة الأحزاب ، وتمامها قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ

---

(١) رواه أحمد والنسائى وابن جرير .

وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾[1]

ومن بين الحكم الإلٰهية العالية التى أباح «الله» للرسول (ﷺ) بسببها الزواج بأكثر من أربع زوجات ، وخصه بذلك وحده دون غيره من سائر الأمة، هو أن يتسنّى لأمهات المؤمنين القيام بالتبليغ عن رسول الله (ﷺ) ، وبالأخص فى تلك الأمور التى لا يراها أصحابه ، ولا يطلع عليها إلا أمهات المؤمنين ، ومن أجل ذلك كان الصحابة (رضى الله تعالى عنهم أجمعين) ، إذا استشكلت عليهم مسألة من المسائل أو اختلفوا فى حكم من أحكام : « **الغسل** ، **أو الحيض** ، **أو المعاشرة الزوجية** ، **أو نحوها** » يسألون عن ذلك ، ويرجعون فى كل هذا إلى أقوال أمهات المؤمنين .

فكان لأمهات المؤمنين فضل عظيم فى نشر كثير من الأحاديث والسنن والأحكام ، التى لا يمكن الاطلاع عليها إلا عن طريقهن ، (رضى الله تعالى عنهن) .

(١) الأحزاب : ٣٥ .

وقد كنَّ على جانب كبير من العلم والمعرفة ، والتفقه فى الدين والذكاء والفهم ، لا سيما السيدة عائشة (رضى الله تعالى عنها) .

عن ابن أبى مليكة أن عائشة زوج النبى (ﷺ) كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه ، وإن النبى (ﷺ) قال : « مَن حُوسِبَ عُذِّبَ » قالت عائشة : أَوَ لَيس يَقُولُ «الله» تعالى :

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ ﴾[1]

قالت : فقال : إِنَّمَا ذَلِكَ العَرضُ وَلَكِن مَن نُوقِشَ الحِسَاب يَهلك .

وهكذا كان لأمهات المؤمنين أثر بالغ وفضل عظيم فى نشر السنة والأحكام ، فقد كان بعض النساء يستحيين من سؤال الرسول (ﷺ) عن أمورهن ولكنهن كن يتعرفن على ما يروى من أمهات المؤمنين لأنهن على صلة دائمة بالرسول (ﷺ) ، ومكانتهن منه كزوجات تمكنهن من التعرف على شتى أنواع الأحكام بلا استثناء ، (فرضوان الله تعالى عليهن) .

ولنساء الإسلام فيهن القدوة والأسوة الحسنة ، وفى معرفة أحكام الدين ، والتعرف على أصول الإسلام .

---

(١) الانشقاق : ٨ .

مَوَاقِفُ فَاصِلَةٌ فِى طَرِيقِ الدَّعْوَةِ

وفى طريق الدعوة الإسلامية مواقف فاصلة حفل القرآن الكريم بتوجيهات إلٰهية بشأنها ، وخلال تلك التوجيهات عبر الطريق الطويل – كان القرآن الكريم يرسى معالم الحق ، ويضع الركائز على الطريق .

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ
عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ
إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ
أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ
إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ
عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾
وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا
جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ

رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾[1]

لقد كثر جدال المشركين وتعنتهم ، وكثرت اقتراحاتهم المعاندة بإنزال الآيات التى تضطرهم إلى التصديق ، وتأخذهم إلى الإيمان ، حيث إنهم عندما يشاهدون ما يقترحون يصدقون بالرسول وليست هذه الاقتراحات اقتراحات صادقة ، ولو كانت كذلك لأجابهم « الله » تعالى إليها ولكنه سبحانه وهو العليم الحكيم ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، فهو يعلم أن ما طلبوه ، وما عارضوا به ما هو إلا الجدال المقنع فى صورة الاقتراح .. لقد طلبوا آية من الخوارق وأحيانا يطلبون أن تكون الآية تحويل الصفا والمروة ذهبا وأحيانا أخرى يطلبون أن يخبرهم بالغيب وبما سيقع لهم فى المستقبل فأمر «الله» رسوله (ﷺ) أن يخبرهم بأنه لا يمتلك خزائن القدرة الإلهية التى تشتمل على كل شىء ، وأنه لا يعلم الغيب حتى يخبرهم بما سيكون فى المستقبل ، وأنه ليس ملكا ليأتى بالأفعال الخارقة للعادة ، إنه ليس كذلك ، وليست هذه هى مهمته وإنما هو رسول من عند «الله» لا يتبع إلا

(١) الأنعام : ٥٠ - ٥٥ .

ما يوحيه «الله» إليه ، نعم حدث لرسول الله (ﷺ) معجزات حسية ومعنوية كحنين الجذع ، وكلام الشاة المسمومة التى قُدِّمت إليه . ومجيئه بالقرآن المعجز لهم من عند «الله» تعالى إلى غير ذلك من المعجزات فلو أنهم كانوا صادقين فيما اقترحوه لآمنوا كما آمن غيرهم من قبل ولكنهم معاندون وكافرون ضالون ، ولا يستوى الكافر الضال الذى عمى عن الحق والمسلم المهتدى البصير بالحقيقة :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾(١)

أو لم تدركوا الحق وتعرفوا أنه لا يمكن أن يستوى الضال والمهتدى .. ويأمر «الله» تعالى رسوله (ﷺ) أن ينذر بما أوحاه إليه الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ، وأن يعلمهم ، وإنما خصَّ بالإنذار أولئك الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم لأنهم الذين يؤثر فيهم الإنذار ويستجيبون لدعوة الحق بخلاف غيرهم من الكافرين المعاندين الذين لا يجدى معهم إنذار ولا إرشاد فإن ذلك لا يؤثر فيهم فإن حال أولئك الذين يخشون أنه ليس لهم من دون ربهم وخالقهم ولى ولا شفيع فهو وحده نصيرهم وشفيعهم وفى هذا رد وتعريض بالنسبة للكفار الذين زعموا أن آباءهم يشفعون لهم أو أن أصنامهم تشفع لهم وهذا منتهى الضلال والفساد ..

---

(١) الأنعام : ٥٠ .

وفى الإنذار لهؤلاء الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ما يدفع قلوبهم للتوق والحذر والخوف من «الله» وتقواه (لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ) ..

ثم تعرض رسول الله (ﷺ) إلى موقف آخر فى دعوته ، ذلك هو موقف الأشراف وكبراء القوم ، لقد رغب الرسول (ﷺ) فى إسلامهم ولكنهم أَنِفُوا أن يجتمعوا مع الضعفاء والفقراء ، وأن يجمعهم مجلس واحد ، ومكانة هؤلاء لا تؤهلهم للجلوس مع سادة قريش الذين يتمتعون بمراكزهم فى ذلك المجتمع ، فطلب السادة من رسول الله (ﷺ) أن يطردهم فأبى ، فطلبوا منه أن يخصص لهم مجلسا ، فَهَمَّ الرسول (ﷺ) بذلك رغبة منه فى دخولهم الإسلام ، وهنا ينزل القرآن :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾(١)

أنهم مستمرون ودائمون على ذكر «الله» آناء الليل وأطراف النهار يريدون وجه «الله» ، عن سعد بن أبى وقاص قال : **كنا مع النبى (ﷺ) ستة نفر** ، فقال المشركون للنبى (ﷺ) : **اطرد هؤلاء عنك لايجترئون علينا** ، قال : **وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع فى نفس رسول الله (ﷺ) ما شاء الله أن يقع .. فحدث نفسه فأنزل «الله» عز وجل :**

---

(١) الأنعام : ٥٢ .

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾(١)

أنهم مخلصون له فى عباداتهم لا يريدون إلا وجهه سبحانه .

ولما كان البعض قد وصف أولئك المؤمنين المخلصين بما ليس فيهم وطعن فى دينهم وحسبهم ، فوضح «الله» حقيقة الموقف مجردة عن أى اعتبار آخر وحتى على فرض صحة ما قيل لهم وهو ليس حقا ، فقد زكاهم ربهم ووصفهم بالعبادة والإخلاص .. لقد وضح القرآن الحقيقة مجردة :

﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾(٢)

فحساب من رغبوا فى طردهم على أنفسهم ما على الرسول (ﷺ) منه شيء وحساب الرسول (ﷺ) على نفسه ما على هؤلاء منه شيء فعلام يطردون ، إنه إن فعل ذلك يكون من الظالمين وحشاه (ﷺ) أن يكون كذلك وإنما هذا من قبيل التعريض والحث للمسلمين وللدعاة من بعده ألا يفعلوا ذلك .

وبمثل هذا الابتلاء ، والاختبار السابق ، فتن «الله» بعض الناس

---

(١) الأنعام : ٥٢ .　　(٢) الأنعام : ٥٢ .

ببعض وامتحنهم وعاملهم معاملة المختبرين فكان عاقبة هذا الاختبار أن يقول السادة المستكبرون المستنكفون الذين استكبروا بأنسابهم وأموالهم عن أولئك الذين آمنوا من المستضعفين : أهؤلاء مَنّ « الله » عليهن من بيننا . أى أهؤلاء الذين أكرمهم « الله » فأصابوا الحقيقة دوننا وكان هذا الاستفهام منهم استنكارا لإيمان من آمن فرد «الله» تعالى عليهم بقوله : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣ ﴾(١)

وفى الرد من الحق تبارك وتعالى تعزيز لحقيقة من آمن وأن نعمة « الله » إنما يستحقها الشاكرون وهو سبحانه أعلم بالشاكرين .. وهذه النعمة - نعمة الإيمان - أجل النعم الإلهية لا ينالها الناس بأموالهم ولا يتفاضلون بجاههم ولا بأحسابهم وإنما بطاعتهم واستجابتهم وبشكرهم لمن خلقهم و «الله» أعلم بمن يكون شاكرا فيهديه إلى نعمة الإيمان ولا يمنع ذلك من أن يكونوا فقراء أو ضعفاء أو عبيدا فميزان التفاضل إنما هو التقوى وطاعة « الله » رب العالمين ، وعن خباب - فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢ ﴾(٢)

---

(١) الأنعام : ٥٣ . (٢) الأنعام : ٥٢ .

قال جاء الأقراع بن حابس التيمى ، وعيينة بن حصن الفزارى ، فوجدا النبى (ﷺ) قاعدا مع بلال وصهيب وعمار وخباب فى أناس من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حقروهم فأتوه فقالوا : إنا نحبُّ أن تجعلَ لنا منك مجلسًا تعرف لنا العرب به فضلنا فإنَّ وفودَ العربِ تأتيك فنستحى أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت ، قال : نعم قالوا : فاكتب لنا عليك بذلك كتابا . قال : فدعا بالصحيفة ، ودعا عليا ليكتب ، قال : ونحن قعود فى ناحية ، إذ نزل جبريل بهذه الآية :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[1]

ثم قال :

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[2]

---

(١) الأنعام : ٥٢ .

(٢) الأنعام : ٥٣ .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ ﴾(١)

فألقى رسول الله (ﷺ) الصحيفة من يده ثم دعانا فأتيناه وهو يقول : (**سَلاَمٌ عَلَيْكُم كَتَبَ رَبُّكُم عَلَى نَفْسِه الرَّحْمةَ**) فكنا نقعد معه ، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله تعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾(٢)

قال : فكان رسول الله (ﷺ) يقعد معنا بعد ، فإذا بلغ الساعة التى يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم .

وكان رسول الله (ﷺ) بعد نزول هذه الآية إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال :

(الحمْدُ للهِ الَّذِى جَعَلَ فِى أُمَّتِى مَنْ أَمَرَنِى رَبِّى أَنْ أَبْدَأَهُمْ بِالسَّلاَمِ) .

---

(١) الأنعام : ٥٤ .

(٢) الكهف : ٢٨ .

وعن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان ، وصهيب وبلال ، ونفر فقالوا :

وَ «الله» مَا أَخذَتْ سُيُوفُ «الله» مِنْ عَدُوِّ «الله» مَأْخذَهَا ، قال :

فقال أبو بكر : **أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِم ..**

فأتى النبى (ﷺ) فأخذه فقال :

يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُم ، لَئِن كُنْتَ أَغْضَبْتَهُم ، لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ » فأتاهم أبو بكر فقال : **يَا أُخَوَتَاهُ أَغْضَبْتُكُم** ؟ قالوا : **لاَ ..يَغْفِرُ «الله» لَكَ يَا أَخَانَا .**

وهكذا نرى إلى أى مدى عنى الإسلام بحقوق الإنسان وتكريمه ومنذ متى ؟ قبل أن تعرف الإنسانية حقوق الإنسان بآماد طويلة ، إن القرآن الكريم لم يكتف بأمر رسول الله (ﷺ) بعدم طرد أولئك المستضعفين من المؤمنين ، وإنما أمره أن يقول لهم : **(سَلاَمٌ عَلَيكُم)** تطييبا لخواطرهم وقلوبهم ، وتكريما لهم ..

وقيل : إن هذا السلام هو من جهة «الله» سبحانه وتعالى ، أى أبلغهم منا السلام ..

ولا يقتصر الأمر على عدم طردهم ، ولا يقتصر على تبليغ السلام لهم ، بل إنه يحمل البُشْرَى لهم من «الله» على يد رسوله (ﷺ) ، بأن « الله » تعالى أوجب على نفسه الرحمة إيجاب فضل وإحسان ، أو كتب ذلك عنده فى اللوح المحفوظ بشرى لهم برحمة « الله » التى

سبقت غضبه ، والتى وسعت كل شىء ، والتى كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياته يؤمنون .

وعلى ضوء هذه الرحمة يستبشر أولئك المؤمنون برحمة «الله» ، وبنعمة منه وفضل ، وأنه من عمل سوءا بجهالة فكان فعله كفعل الجاهلين ، لأن من يفعل ما يؤدى إلى الضرر مع علمه بهذا فقد فعل فعل أهل الجهل ، أو أنه عمل ذلك وهو جاهل بما يتعلق بذلك من الضرر وما يترتب عليه .. فإن من عمل ما عمل ثم تاب بعد ذلك وأصلح ما كان قد أفسد ، وعاد إلى ربه ورجع إلى صوابه ، وعمل صالحا ، وأطاع ربه ، فإنه عندئذ سيجد ربه غفورا رحيما ، وسعت رحمته كل شىء وسبقت رحمته غضبه ..

يقول الرسول (ﷺ) :

(لما قضَى « الله » عَلَى الخلْقِ كَتَبَ فى كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ : إنَّ رَحْمَتِى غَلَبَتْ غَضَبِى)[1] .

وبمثل هذا التفصيل والتبيين ، فصل « الله » تبارك وتعالى الآيات وبينها ، لتستبين سبيل المجرمين ، وتتضح ، وحيثما استبانت واتضحت تتضح وتستبين طريق المؤمنين ، وبضدها تتميز الأشياء ..

وبهذا ندرك عناية المنهج القرآنى الحكيم بتوضيح السبل حتى لا تلتبس الحقيقة ، وحتى لا يضل الطريق أحد .

---

(١) رواه مسلم .

مَوْتُ السَّيِّدَةِ خَدِيجَة ، وَأَبى طَالِب

قطع المسلمون - قبل الإسراء والمعراج - فترة زمنية لاقوا فيها من الأذى والاضطهاد ما تنوء بحمله الرواسى وأطل عليهم عام من الأعوام سمى « **بعام الحزن** » فقد سقط فيه ركنان من أهم الأركان التى كانت سندا للرسول (ﷺ) .

أولا : عمه أبو طالب الذى ناصر الرسول (ﷺ) ، ولم يأل جهدًا فى كل ما يحتاجه فى سبيل تأمين دعوته ، وقد حزن الرسول (ﷺ) كثيرا لموته ، فقد كان الحصن المنيع الذى يرد سفاهة السفهاء ، وجهالة الجهلاء وبطش المتجبرين ، وقد روى أن رسول الله (ﷺ) قال : « **مَا نَالَتْ مِنِّى قُرَيشٌ شَيْئًا أَكْرَهُهُ حَتَّى مات أبو طالب** » .

ومع ما كان عليه أبو طالب من مخالفة الرسول (ﷺ) فى الدين إلا أنه ظل قويا فى دفاعه وانتصاره للرسول (ﷺ) ، وَعِنْدَمَا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ قَال : « **يَا مَعْشَرَ بَنِى هَاشِمٍ أَطِيعُوا مُحَمَّدًا وَصَدِّقُوهُ تُفْلِحُوا وَتَرْشُدُوا** » ، فقال له الرسول (ﷺ): « **يَا عَمِّ تَأْمُرُهُم بِالنَّصِيحَةِ لأَنْفُسِهِم وَتَدَعُهَا لِنَفسك** ؟ فأجابه قائلا : **فَمَا تُرِيدُ يَا بْنَ أَخِى** ؟ » .

قال (ﷺ) : **أُرِيدُ أَنْ تَقُولَ لاَ إِلَه إِلاَّ الله** ، فقال : **يَا بْنَ أَخِى**

قد عَلِمْتُ أنَّكَ صَادِقٌ غيْرَ أنِّي أخْشَى أنْ أُتَّهَمَ بالخوفِ عِنْدَمَا حَانَ حَيْنِي ، وَلَوْلاَ ذَلِكَ لاَتَّبَعْتُ نَصيحَتَكَ لأقِرَّ عَيْنَيْكَ اللتَيْنِ أرَى فيهمَا حُزْنكَ ثم مات .

ثانيا : زوجه خديجة (رضى الله تعالى عنها) ، وهى ذات التاريخ المجيد فى نصرة الرسول (ﷺ) آمنت به حين كذبه الناس وواسته بمالها وفكرها وكل قواها وعندما رجع الرسول (ﷺ) يرجف فؤاده ودخل عليها ، وقال : **زَمِّلُونى زمِّلُونى** ، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: « **لَقَدْ خشِيتُ عَلَى نَفْسِي** » فقالت له خديجة : « **كَلاَّ والله لاَ يُخْزِيكَ «الله» أبَدًا إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحمَ وتَحْمِلُ الكَلَّ وَتُكْسِبُ المعْدُومَ وَتَقْرِى الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحق** » إنه إذًا لَفِكرٌ ثاقب حصيف ، وفطرة نقية استنبطت على أضوائها عظمة الرسول (ﷺ) ، ومهمته الشريفة التى ألقيت على عاتقه من السماء ليبلغها الناس .. هذه المثالية الفذة ، وهذا الحنان الدافق فقده أيضا فى نفس العام .

ومن هنا ، وبعد فقد هذين الركنين انهالت سفاهات الكفر ، وتوجهت بكل ضراوتها وصلفها إلى الرسول (ﷺ) وإلى المسلمين ، عن ابن مسعود قال : « **بَيْنَا رَسُول الله (ﷺ) عِنْدَ البَيْتِ وَأبُو جَهْلٍ وَأصْحَابُهُ جُلُوسٌ ، وَقَدْ نُحِرَتْ جزُورٌ بِالأمْسِ . فَقَالَ أبُو جَهْلٍ : أيُّكُم يَقُوم إلى سلا جزور بنى فلان فيضعه بين كتفى محمد** -

(ﷺ) إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم فأخذه فلما سجد النبى (ﷺ) وضعه بين كتفيه ، فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر ، لو كانت لى منعة طرحته عن ظهره ، والنبى (ﷺ) ساجد ما يرفع رأسه ، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة ، فجاءت - وهى جويرية - فطرحته عنه ، ثم أقبلت عليهم تشتمهم ، فلما قضى رسول الله (ﷺ) صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم ، وكان إذا دعا ، دعا ثلاث مرات وإذا سأل سأل ثلاثا ، ثم قال : « اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْش » ثلاثا ، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته ، ثم قال : « اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِى جَهْلِ بن هِشَام ، وَعُتْبَةَ بن رَبِيْعَةَ ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيْعَةَ ، وَالْوَلِيد بْنِ عُتْبَةَ وأُمَيَّةَ بْنِ خَلَف ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِى معيطِ ، وذكر السابع ولم أحفظه ، فَوَ الَّذِى بَعَثَ مُحَمَّدًا (ﷺ) بِالحَقِّ لَقَد رَأَيتُ الَّذِينَ سَمَّى صَرعَى يَومَ بَدَرِ ، ثُمَّ سُحِبُوا على القليب قليب بدر »[1] .

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى وأحمد .

فـــى الطـــائـــــف

اتجه الرسول (ﷺ) – بعد ذلك – شرقى مكة ، قاصدا الطائف ليلتمس العون والمنعة ، فلما وصلها ، أبدوا له من العناد والإنكار لدعوته ما يدل على فساد طباعهم وعقائدهم ، وإصرارهم على ضلالهم القديم ، فقطع الرسول (ﷺ) عشرة أيام صابرا محتسبا عله يجد قلوبا تلين لدعوته وآذانا تسمع نداءه ، ولكن القوم ظلوا فى ضلالهم يعمهون ، وقابلوه بإصرار دائم على الإنكار ، وزادوا ذلك بإيذائه فأسرع بالرحيل عنهم قائلا لهم : « **إذا أبيتم فاكتموا على ذلك حتى لا يذاع النبأ فى مكة** » فتندلع شماتتهم ، ولكن القوم تجردوا من أبسط مظاهر المروءة والرحمة ، فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، واصطفوا له يشيعونه بالسباب ، ويقذفونه بالحجارة حتى سال الدم الشريف من أقدامه (ﷺ) فذهب إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وجلس إلى ظل شجرة من عنب حتى اطمأنت أنفاسه ، فصعدها للسماء طاهرة مبرورة هاتفا من أعماقه : « **اللَّهُمَّ إليكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتى وَقِلَّةَ حِيْلَتِي وَهَوانى عَلَى النَّاسِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَنْتَ رَبُّ المسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّى إلى مَنْ تَكِلُنِى إلى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِى أَمْ إلى عَدُوٍّ مَلَّكْتَه أَمْرِى إن لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَىَّ فَلاَ أُبَالى ولكنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لى ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذى أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ**

عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنزِلَ بِى غَضَبَكَ أَوْ تُحِلَّ عَلَىَّ سَخَطَكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ »(١) .

وفى هذه اللحظات تجيش العاطفة فى قلب كل من عتبة وشيبة ابنى ربيعة فإذا بهما يرسلان غلامهما النصرانى « عدَّاسًا » بقطف عنب إلى الرسول (ﷺ) فلما وضع الرسول (ﷺ) يده فيه قال : **بسم** « **الله** » ثم أكل ونظر عدَّاس قائلا : **هذا كلام لا يقوله أهْلُ هَذِهِ البلاد** ، فسأله الرسول (ﷺ) **مِن أىِّ البلادِ أَنْتَ وَمَا دِينُكَ ؟؟** قال : **أَنَا نَصْرَانِى من** « **نينوى** » ، فقال الرسول (ﷺ) : **أمِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُس بن مَتَّى ؟** قال له : **وما يُدْرِيكَ مَا يُونُس ؟** قال الرسول (ﷺ) : **ذَلِكَ أخى كان نبيًّا وأَنَا نَبِىٌّ** ، فأكبَّ عدَّاس على يدى رسول الله (ﷺ) ورجليه يقبلهما ، فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر : **أَمَّا غُلاَمُكَ فَقَدْ أَفْسَدَهُ عَلَيْكَ** ، **فَلَمَّا** جاء عدَّاس قالا له : **وَيْحَكَ مَا هَذَا ؟** قال : مَا فِى الأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ هَذَا الرجل ، وقفل الرسول (ﷺ) راجعا إلى مكة فقال له زيد بن حارثة : **كَيْفَ تَدْخُلُ عَلَيْهِم وَقَدْ أَخْرَجُوكَ** ، فقال : **يَا زَيْدُ إنَّ «الله» جَاعِلٌ لما تَرَى مَخْرَجًا** ، ثم توجَّه بعد ذلك إلى حراء وأرسل زيد بن حارثة إلى الأخنس ليجيره فأبى ، ثم بعثه بعد ذلك

---

(١) رواه الطبرانى فى معجمه الكبير .

إلى سهيل فأبى أيضا ، ثم بعثه إلى المطعم بن عدى فأجابه ، وخرج المطعم وأهله حتى أتوا المسجد ، وطاف بالبيت سبعا ، وهكذا نرى النخوة العربية ، وسمات المروءة والنجدة التي اتسم بها المطعم كأبى طالب حيث قام بما قام به وهو على غير دين الإسلام .

الرُّجُوعُ مِنَ الطَّائِفِ

ولما لم يجد رسول الله (ﷺ) - فى الطائف - قلوبا متقبلة دعوته ، ولا آذانا تصغى لهدايته ، عادَ إلى مكة المكرمة وهو مهموم مما لاقاه من القوم من عنت وجحود ، وتكذيب وسفاهة .. فلم يستفق الرسول (ﷺ) إلا وهو بقرن الثعالب ، فرفع رأسه فإذا هو بسحابة قد أظلَّته ، وإذا فيها جبريل عليه السلام .. قال (ﷺ) : **فَنَادَانِى فقال : إنَّ «الله» قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَارَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ ، لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيْهِم . قَال : فَنَادَانِى مَلَكُ الجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَىَّ ثُمَّ قَالَ :**

«يَا مُحَمَّدُ إنَّ «الله» قَدْ بَعَثَنِى إِلَيْكَ ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَنِى بِأَمْرِكَ ، فَمَا شِئْتَ ؟ إنْ شِئْتَ أُطْبِقُ عَلَيْهِم الأَخْشَبَين[١] فقال رسول الله (ﷺ) : **«بل أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلاَبِهِم مَنْ يَعْبُدُ «الله» وحده وَلاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»**[٢].

وفى بعض الروايات : فقال ملك الجبال : أَنْتَ كَمَا سَمَّاكَ رَبُّكَ «رَؤُوفٌ رَحِيمٌ».

---

(١) الأخشبان هما جبلان فى مكة المكرمة أما أحدهما : فهو جبل أبى قبيس وأما الثانى : فهو المقابل له ويسمى قعيقعان .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

الْعودَةُ إلى مَكَّةَ الْمُكرَّمة، وَاسْتِمَاع الجِنِّ لِلْقُرآن بِوَادِي نخْلَة

بعد رحلة الطائف ومالاقاه الرسول (ﷺ) فيها من معاناة ومن همٍّ وغمٍّ ، وتعبٍ ونصبٍ ، توجَّه إلى مكة ..

فقال له زيد بن حارثة : **كَيْفَ تَدْخُلُ عَلَيْهِم وَقَدْ أَخْرَجُوكَ ؟** فقال (ﷺ) : **يَا زَيْدُ إِنَّ « الله » جَاعِلٌ لما ترى مَخْرَجًا فَلَمَّا** كان بنخلة ، صرف «الله» إليه نفرا من الجن ، قال «الله» تعالى :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا
حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ
(٢٩) قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ
(٣٠) يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن
ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ
فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ
فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٣٢) ﴾[1].

(١) الأحقاف : ٢٩ – ٣٢ .

وعن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال : ما قرأ رسول الله (ﷺ) على الجن ولا رآهم ، انطلق رسول الله (ﷺ) فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : مالكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب .

قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شىء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ماهذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ماهذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله (ﷺ) وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء فهنالك حين رجعوا إلى قومهم ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝٢ ﴾[1]

وأنزل «الله» على نبيه (ﷺ) :

﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ ﴾

(١) **سورة الجن** : ١ - ٢ . والحديث رواه البيهقى فى «دلائل النبوة»

وكان الجن الذين صرفهم « الله » إليه سبعة من جن نصيبين من أرض الجزيرة بين العراق والشام . وكانوا سبعة جاءوا حين كان (ﷺ) يتهجد من الليل أو حين كان يقرأ القرآن فى صلاة الفجر .

فاستمعوا إلى القرآن وآمنوا وأجابوا كما قص القرآن الكريم نبأهم فى سورة (الجن) .

لقد استمع الجن إلى القرآن وآمنوا على الفور ، ودعوا قومهم إلى الإيمان ، ولم يكن الرسول (ﷺ) قد شعر بهم ولا باستماعهم وإنما أنبأه رب العزة سبحانه وتعالى عن طريق الوحى ، وأمر «الله» تعالى رسوله (ﷺ) أن يخبر قومه الذين كذبوا ولم يؤمنوا ، ويوبخهم بأن الجن كانوا خيرا منهم وأسرع إلى الإيمان .

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾(١)

وفى بيان القرآن الكريم لما كان عليه الجن من الإيمان بالقرآن ، توبيخ وتقريع للذين لم يسارعوا بالإيمان من العرب الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم .

كما حكى القرآن الكريم عن الجن استقبالهم لدعوة التوحيد بالإيمان . ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾(٢)

---

(١) الجن : ١ ، ٢

(٢) الجن : ٣ .

أى تعالت عظمة « الله » سبحانه الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، فليس له زوجة ولا ولد ، لأن هذا التزاوج والتناسل من صفات البشر الذين يعتريهم النقص والحاجة و «الله» منزه عن الحاجة وعن النقائص .

وأن المؤمنين من الجن كانوا يتبرءون من إبليس ومن قوله البعيد عن الحق والعدل والذى يدعوهم إلى الشر :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ ﴾(١)

كما أعلنوا أنهم قبل ذلك كانوا يظنون أنه من المستبعد أن ينسب أحد من الإنس أو الجن إلى «الله» تعالى مالا يليق به من الافتراء والكذب ويزعم أن الله له صاحبة وولد تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا .

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾(٢)

كما أخبر القرآن الكريم أن بعض الإنس كانوا يستجيرون ببعض الجن ، فكان الرجل إذا أمسى فى وادٍ قفر وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه ، فإذا سمعوا ذلك استكبروا وقالوا : سدنا الإنس والجن ، فزاد الإنس الجن كبرياء وعتوا :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾(٣)

---

(١) الجن : ٤ . (٢) الجن : ٥ . (٣) الجن : ٦ .

وأن كفار الإنس زعموا - زورًا وبهتانا - كما زعم بعض الجن أن «الله» سبحانه وتعالى لن يبعث أحدا بعد الموت أى أنهم أنكروا البعث : ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾(١)

وعندما أراد الجن أن يبلغوا السماء ، من أجل أن يروا ما فيها ويستمعوا إلى كلام أهلها ، فوجئوا أن السماء قد امتلأت بملائكة «الله» تعالى الذين يحرسونها وبالشهب المحرقة التى تقع على من يحاول أن يقترب منها ، وقد كان الجن قبل بعثة سيدنا محمد (ﷺ) يطرقون السماء ليستمعوا إلى أخبار أهلها ثم يقوموا بتوصيل ذلك إلى الكهان ، وأما بعد بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (ﷺ) فإن من حاول من الجن ذلك أحرقته الشهب وأهلكته ، ثم قالوا لا نعلم سر ذلك وما «الله» فاعل بأرضه وبسكانها . أشرٌّ أريد بهم ؟ وهل امتلأت السماء بالملائكة الحارسين وبالشهب لعذاب سيقع على أهل الأرض أم لخير لهم ؟ بأن يبعث فيهم رسول يخرجهم من الظلمات إلى النور .

قال الحافظ ابن كثير : وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك وهو الذى حملهم على تطلب السبب فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فرأوا رسول الله (ﷺ) يقرأ بأصحابه فى الصلاة فعرفوا أن هذا هو الذى حفظت من أجله السماء فدنوا منه حرصا على سماع القرآن ثم أسلموا .

---

(١) الجن : ٧ .

الإســــــــــــراء

قال الله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾(١)

وفى هذه الآية الكريمة أشار النص القرآنى المجيد إلى رحلة الإسراء مفتتحا الحديث عنها بتسبيحه جل شأنه مبتدئا بكمال تنزيه الذات العلية عن كل نقص ، وموضحا الحجة الدامغة الصريحة على أنها معجزة فوق مستوى العقل البشرى ، وذلك بإسناد الفعل إلى «الله» العلى القدير ، ولما كان فى الإسراء ما فيه من سمو مكانة الرسول (ﷺ) ، وزيادة تشريفه ، فقد وصفه «الله» تعالى بأسمى الأوصاف ، وأكرم المقامات ، وهى قوله تعالى : «بِعَبْدِهِ» فهو الذى خلصت عبوديته ، وكمَّله ربُّه ، وأدَّبه فأحسن تأديبه ، وتوَّجَهُ بمكارم الأخلاق ، قال تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾(٢)

وقال (ﷺ) : «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ**» . لقد أسرى

---

(١) الإسراء : ١ .   (٢) القلم : ٤ .

به ليلا ، فى وقت السكون وفى هدأة الحياةِ وطمأنينة الأفق الكونى فى جزء محصور من الليل ، فأسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك «الله» حوله بكثير من النعم السابغة الظاهرة والباطنة ، المادية منها والروحية ، فحول هذا المسجد العظيم أخرج «الله» تعالى كثيرا من خيرات الأرض ونباتاتها الطيبة الكثيرة التى تنفع الناس ، كما أن حوله من البركات الروحية والمعنوية ما يروى ظمأ النفوس المؤمنة ، فهو مهبط الأنبياء والملائكة .. وقد كشفت الآية الكريمة عن آلاء «الله» التى توافدت على حبيبه (ﷺ) ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ① ﴾(١)

وفى تلك الآيات التى أراها «الله» لحبيبه ومصطفاه (ﷺ) ما يدل على كمال قدرة «الله» سبحانه وتعالى مما لا يسوغ لمنكر جاحد أن يتصدى لهذه المعجزة الخارقة بالإنكار ، لاسيما وقد أمد «الله» تعالى الفكر البشرى اليوم بفيض غامر من العلوم والمعارف التى جعلته يرسل الطائرات فى الأجواء ، ويبعث سفن الفضاء فترسو على القمر ، فكيف ينكر إنسان على خالق القوى والقدر ، ومدبر السموات والأرض إسراءه برسوله (ﷺ) ؟ .

ومما ينبغى الإشارة إليه أن الإسراء والمعراج ليسا معجزة خاصة

---

(١) الإسراء : ١ .

بتأييد الدعوة ، وإنما المعجزة التى تحدى بها القوم هى القرآن الكريم ، أما هذه المعجزة فهى إحدى الخوارق وفى الوقت نفسه تكريم ، أى تكريم لخاتم المرسلين (ﷺ) .

وكان لهذه المعجزة أثرها ، إذ زادت المؤمنين إيمانا ويقينا واستبشروا برعاية «الله» تعالى لهم وزادت الكافرين رجسا وفتنة ، قال تعالى :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾(١)

وهكذا كان لهذه المعجزة أثرها بما أفاءه « الله » تعالى على رسوله (ﷺ) من الآيات الكبرى التى رآها فى هذه الرحلة المباركة .

ثم رجع رسول الله (ﷺ) يُحدِّث بما رأى ابنة عمه أم هانىء وحاولت معه ألاَّ يخبر أحدا من الكفار بذلك ولكن الرسول (ﷺ) صمم أن يحدث بما رأى من نعم «الله» سبحانه وتعالى ، فذهب إلى جوار الكعبة مفكرا فى خشوع وابتهال فمر به أبو جهل ، فقال له : هل من خبر ؟ فقال : **نعم** ، قال : وما هو ؟ فقال : **إنى أُسرِىَ بِىَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ المقْدِس** ، فقال : إلى بيت المقدس ؟ فقال : **نعم** ،

---

(١) التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥ .

قال أبو جهل : أرأيت إن دعوت قومك لتخبرهم أتخبرهم بما أخبرتنى به ؟ فقال : **نعم** ، فنادى أبو جهل : هيا يا معشر قريش فاجتمعوا ، فقال للرسول (ﷺ) : أخبر قومك بما أخبرتنى به ، فقال الرسول (ﷺ) : **إنَّهُ أُسْرِىَ بِى إلى بَيْتِ المقْدِس تِلْكَ اللَّيلَة** ، فكذبوه واستبعدوا ذلك ، وقالوا لأبى بكر : إن صاحبك يقول كذا وكذا ، فقال : **إنْ كَانَ قَدْ قَالَهُ فَقَدْ صَدَق** ، قالوا : تصدقه على ذلك ؟ قال : **إنّى أُصَدِّقُهُ عَلَى أَبْعَد مِنْ ذَلِك : أصدقه عَلَى خَبَرِ السَّمَاءِ .**

وقد تمادى القوم فى لجاجهم وحوارهم ، ويسألون رسول الله (ﷺ) فى تعنت وجفاء عن بيت المقدس ومنهم من كان رآه ، وظنوا أنهم بهذه الأسئلة سيوقعون الرسول (ﷺ) فى الحرج ، ولكنه (ﷺ) - وهو المؤيد من قبل ربه - قد وصف لهم بيت المقدس وصفا كاملا فى غاية الدقة وأخبرهم عن آياته يقول الرسول (ﷺ) : **فَجَعَلْتُ أُخبِرُهُم عَنْ آياته فَالْتَبسَ عَلَىَّ بَعْض الشَّيْءِ فَجلَّى «الله» لى بَيْتَ المقْدِس ، ثم جَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيه دُونَ دَار عقيل وأَنْعَتُهُ لَهُمْ** ، فقالوا: أما النعت فقد أصاب ، ثم قالوا : أخبرنا عن عيرنا فهى أهم إلينا ، هل لقيت منها شيئا ؟ قال (ﷺ) : **نَعَمْ مَررتُ بِعِيرِ بَنِى فُلاَنٍ وَهِىَ بِالروحاء وَقَدْ فَقَدُوا بَعِيرًا لَهُمْ وَهُمْ فِى طَلَبِهِ ، وَفِى رِحَالِهِمِ قَدَحٌ مِنْ مَاءٍ فَأَخَذْتُهُ وَشَرِبْتُهُ وَوَضَعْتُهُ كَمَا كَانَ ، فَاسْأَلُوا هَلْ وَجَدُوا الماءَ فى الْقَدَح حِين رَجَعُوا ؟** وقالوا : هذه آية ، قال :

مَرَرْتُ بِعِيرِ بَنِى فُلاَنٍ وَفُلاَنٍ رَاكِبَيْنِ ، فَنَفَرَ بعيرُهُمَا مِنِّى فَانْكَسَرَ ، فَاسْأَلُوهُمَا عَنْ ذَلِكَ قالوا : هذه آية أخرى ...

ثم أخذوا يسألونه عن العدة والأحمال ودقائق الملابسات فوصفها أكمل وصف ، وقال لهم : **تَقْدمُ يَوْمَ كَذَا مَعَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَفِيها فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ يَقْدمُهَا جَمَلٌ أَوْرَق عَلَيه غرارَتَانِ مُحِيطَتَانِ** ، قالوا : هذه آية أخرى . ومع وضوح هذه الأدلة ، فقد لج القوم فى عنادهم و لم يصدقوا تلك المعجزة الواضحة ، فقد طمس «الله» على أبصارهم وبصائرهم :

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾[1]

(١) النور : ٤٠ .

المعـــــــــــراج

يظهر للباحث فى قصة الإسراء والمعراج أن قصة المعراج لم تذكر مع قصة الإسراء فى السياق القرآنى الحكيم ، مع أنهما حدثتا فى ليلة واحدة ، وذلك إنما كان تنبيها لقلوب القوم وفتحا للأفق الفكرى لديهم حتى يدركوا الحقيقة عن طريق إيمانى سليم ، تتضح أدلته أمام أعينهم تدريجيا بالإسراء أولا ، وعندما تتضح الحقيقة بأدلتها الناصعة على صدق الرسول (ﷺ) فى وصفه لبيت المقدس وللعير ، وما إلى ذلك من الدلائل ، فتأنس القلوب وتثق بالمعجزة فيحدثهم - بعد ذلك - القرآن الكريم عن بقية الرحلة ، وعن قصة المعراج ، قال تعالى :

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ
عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥
ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠
مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ
نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥

إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾(١) .

وقد سبق هذه الرحلة إعداد إلٰهى لنفس الرسول (ﷺ) فجاءه جبريل (عليه السلام) وشق صدره الشريف وقلبه العظيم ، ومنحه «الله» سبحانه من القوة الروحية والإعداد الإلٰهى ما يعينه على تحمل تلك الأخطار ، وما يتغلب به على كل عامل من العوامل المانعة للعروج ، والسمو إلى الملأ الأعلى ، بحيث لا يتعارض مع النواميس الكونية ، والضغوط الجوية ، بل يكون فى قدرة أسمى هى مدد من الكبير المتعال .

الرَّدُّ عَلَى مَا أُثِيرَ مِنْ مَزَاعِم :

ومعجزة الإسراء والمعراج واضحة وضوح الشمس لمن وقف على نصوص القرآن والسنة ، بأنها كانت يقظة بالروح والجسد معا ، ولا عبرة بما أثير حولها - قديما وحديثا - من مزاعم واهية لا أساس لها من الصحة ، فإن ما نسبوه إلى السيدة عائشة (رضى الله عنها) أنها قالت : «**مَا فُقِدَ جَسَدُ رَسُولِ الله** (ﷺ) » فهذه الرواية غير صحيحة سندا ومتنا ، ولا أصل لها ، فإن الثابت أنها لم تكن مع

(١) **النجم** : ١ - ١٨ .

الرسول (ﷺ) ، ولم يضمهما بيت .. فالإسراء والمعراج معجزة تمت فى مكة قبيل الهجرة والنبى (ﷺ) ، إنما بنى بالسيدة عائشة (رضى الله تعالى عنها) بعد ذلك فى المدينة .

وأما ما أثير حول الإسراء والمعراج من أن ذلك كان رؤيا منامية فذلك ادعاء باطل ، فكيف يكون رؤيا وقد وقفوا يعارضون ويجادلون ، أليسوا يسلمون بالأحلام والرؤيا المنامية ؟

فلو كانت رؤيا لما أثير حولها كل هذا الضجيج - وقد جاء التعبير القرآنى الحكيم عندما تحدث عنها واضحًا كل الوضوح - فبدأها بتنزيه «الله» تعالى : «**سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى** ...» وهذا لا يكون إلاَّ فى الأمور الهامة العظيمة الأثر ، وكلمة «أسْرَى» موضوعة فى اللغة العربية على السير ليلا بالحركة المحسوسة فى اليقظة ، والتنصيص على ذكر الرسول (ﷺ) بقوله «**بِعَبْدِهِ** ..» يؤكد ذلك ، فالعبد إنما يطلق على الآدمى جسدا وروحا ، وهذا ما يعنيه الأسلوب القرآنى فى التعبير «**بِعَبْدِهِ** ..» الذى تكاملت فيه أسمى المقامات عند ربه سبحانه وتعالى .

الغاية من هذه الرحلة

١ - حدد القرآن الكريم الغاية السامية من هذه الرحلة فى قوله تعالى :

﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ① ﴾ (١)

وفى هذه الغاية وهى رؤية الآيات الإلهية تكريم وتقدير له (ﷺ) ، بعد أن لاقى من أذى القوم وعنتهم ، فأوقفه «الله» تعالى على مكانته العليا التى أعدها له وعلى آيات ملكوته العظيم .

٢ - كما أن هذه الرحلة كانت استعدادًا وإعدادًا ، تأهب فيه الرسول (ﷺ) والمسلمون لمراحل قادمة ، وأشواط ستقطعها الدعوة الإسلامية فى سبيل «الله» .. وكلها كفاح وجلد ، وتبدأ بالهجرة فى سبيل «الله» ، وتواصل الجهاد رافعة راية «الله» ، ناشرة دعوة السماء بين أرجاء العالم .

٣ - وحفلت عبر هذه الرحلة المباركة بمعان كثيرة تكشف عن فضائل عديدة لها أثرها فى المحيط الإسلامى وتسمو بالأمة إلى مرضاة ربها ، كما كشفت عن رذائل بشعة فى ارتكابها هوان وضياع للأمم والشعوب دنيا أخرى فأوضحت الرحلة نماذج عديدة ، وصورا بارزة محسوسة لأصحابها من الثواب

---

(١) الإسراء : ١ .

والعقاب ، ومثوبة «الله» تعالى للطائعين وعقابه للمذنبين ، وأطلع الحبيب حبيبه على أسرار من الملكوت الأعلى الذى لم يصل إليه سواه .

ووضحت الرحلة قيمة الحياة الدنيا ، وما ينبغى وأن يكون الناس فيها سالكين رحلتها على هدى وإخلاص بعيدا عن التكالب والتناحر .

كما وضحت صور الحلال والحرام : فبينت مثوبة المجاهدين والمخلصين وعقاب المنافقين والزناة وأكلة الربا ، وخطباء الفتنة وأكلة مال اليتيم وما إلى ذلك .

٤ - واستهدفت الرحلة كذلك غاية عظيمة ، وهى وحدة تلك الأماكن المقدسة التى أشارت إليها الآية الشريفة مبينة شرف المسجدين حتى تتوطد الصلات وتتوثق العرى ، فيتوحد الشمل ويجمع المسلمون أمرهم .

- لماذا لم تكن المعجزة على مرأى من الناس ؟

شاء «الله» الحكيم الخبير أن تحدث معجزة الإسراء والمعراج ليلا ، وعلى غير مرأى من الناس ، وكان من اليسير أن تحدث أمامهم ولكن حكمة «الله» تعالى اقتضت أن تكون على غير مرأى منهم ، فلو حدثت أمامهم لرموها بالسحر كما كان شأنهم بالنسبة لغيرها من المعجزات ، كانشقاق القمر وغير ذلك .

بل لقد سبق منهم القول بالتكذيب حين حكى « الله » قولهم :
« **ولن نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ** » وقال تعالى :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1]

كما أن هذه المعجزة لم يكن المراد بها دعوتهم بل تكريم الرسول (ﷺ) وإعداده وإسباغ النعم الإلهية عليه ظاهرة وباطنة .. ومع ذلك فقد كان من الملابسات ما يظهرها أمام أعينهم بعد ما حدثهم بها ، وسألوه عن الكثير فأجابهم بما هو معجز ، ولكنهم استنكفوا أن يصدقوه ، وظلوا على كفرهم .

ثم ألم تأتهم المعجزات من قبل كثيرة لا حصر لها ، وعلى رأسها القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟

---

(١) الحجر : ١٤ ، ١٥

الحِكْمَةُ فِى كَوْنِهَا إِلَى بَيْتِ المقْدِسِ

حظى بيت المقدس فترات طويلة كان فيها مهبطا لوحى السماء ، وموطنا لانبثاق النبوات والمعجزات من سمائه ، فلما قضت الحياة مسيرتها ، وألقت السماء بالأمانة الإلهية والرسالة الخاتمة الى خاتم النبيين (ﷺ) قام بأمر «الله» يصل الحاضر بالماضى ويقطع رحلة إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ربطا لرسالات السماء السابقة التى عطرت أرضه ، وباركت حوله ، وقد كرمه «الله» تعالى فى هذا الموطن حيث التقى فيه بالمرسلين من قبله فصلى بهم ركعتين فيه ، إشارة إلى أن الإسلام هو الدين الخاتم :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[1]

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[2]

والرسول (ﷺ) هو المتمم لمكارم الأخلاق ، والمكمل لبناء دعوات السماء ، قال (ﷺ) : « **مَثَلِى وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِى كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ ، فَجَعَلَ النَّاس يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ : هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَة ؟ فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيينَ** »[3]

---

(١) آل عمران : ١٩ .　(٢) آل عمران : ٨٥ .

(٣) أخرجه البخارى ومسلم .

الجِهادُ فِى ضَوْءِ الرِّحْلَةِ المبَارَكَةِ

أبرزت هذه الرحلة المباركة مكانة الجهاد والمجاهدين بحيث يرى كل مؤمن من خلال ما ألقته الرحلة من أضواء مثوبة المجاهدين فى سبيل «الله» ، وما أفاءه «الله» تعالى عليهم من مثوبة وفضل ، فقد مر رسول الله (ﷺ) فى رحلته على قوم يزرعون ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال لجبريل عليه السلام : **مَا هَذَا ؟** قال : **هَؤُلاء المجاهِدونَ فى سبيل « الله » تُضَاعَفُ لَهُمْ الحسَنَةُ إلى سَبْعُمَائَةِ ضِعْفٍ وَمَا أنْفَقُوا مِنْ شَيءٍ فَهُوَ يَخْلُفه وَهوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ .**

وفى هذا النموذج المحسوس لمثوبة الجهاد وفضله ، نقف على مكانة المجاهدين ، وتجيش فى نفوسنا عواطف الإيمان دافقة حتى تتجمع القوى ، وتتحد الطاقات على أسس من الإيمان الصادق ، والعمل المخلص ، لنطهر بقاعنا ، ونسترد مقدسات طال وقوعها تحت أيد دنسة ، فها هو ذا المسجد الأقصى ثالث الحرمين ومسرى رسولنا (ﷺ) يحفز فينا الهمم ويستنهض بيننا المشاعر ،

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ ﴾(١)

---

(١) البقرة : ١٩٠ .

وقال (ﷺ) موضحا مكانة المساجد الثلاثة : « **لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إلاَّ إلى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ : مَسْجِدِى هَذَا ، وَالمسْجِدِ الحرَامِ ، وَالْمَسجِدِ الأَقْصَى**»[١] ، كما أبرز فضائل كل واحد منها بما له عند « الله » من مكانة ، وما للعبادة فيه من مثوبة مضاعفة ، وأجر وافر ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِى هَذَا بِأَلفِ صَلاَةٍ ، وَصَلاَةٌ فِي الْمسجِدِ الْحَرامِ بِمَائَةِ أَلْفِ صَلاَةٍ ، وَصَلاَةٌ فِي المسْجِدِ الأَقْصَي بِخَمْسُمَائَةِ صَلاَةٍ** »[٢] .

فَرِيْضَةُ الصَّلاَةِ .. فِى ضَوءِ الرِّحْلَةِ الْمَبارَكَةِ :

رسمت رحلة الإسراء والمعراج منهجا مشرقا للحياة ، وأخذت مسيرتها المباركة تقدم قيما رشيدة وحِكَمًا دقيقة ، وطالعت العالمين بمعجزة باهرة سبقت تقدم العلم الحديث واكتشافاته ، وخرقت النواميس الطبيعية ، وتحدت دورة الزمن ، ويومها تمحصت قلوب ، وتفجرت مبادىء ، وتماسكت قوى الإيمان الصادق لتواكب قافلة الدعوة فى نضالها حتى يحق «الله» الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون .

وقد كشفت هذه الرحلة عن صور ونماذج لمن اعتدل بفطرته ولمن حاد عنها ، ومن بين ما ألقت عليه الرحلة من أضواء ركن من أركان الإسلام وفريضة من أهم الفرائض وهى : « **الصلاة** » .

(١) **رواه أحمد البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه .**

(٢) **رواه البيهقى فى شعب الإيمان ولفظه:** «صلاة فى المسجد الحرام مائة ألف صلاة، وصلاة فى مسجدى ألف صلاة، وفى بيت المقدس خمسمائة صلاة» **ورواه أحمد وابن ماجه باختلاف يسير.**

والصلاة كانت من بين ما أوحى « الله » به إلى نبيه (ﷺ) ، ومن بين ما افترضه ليلتها على نبيه ..

أخرج الإمام أحمد قال : حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا ثابت البنانى عن أنس بن ماللك أن رسول الله (ﷺ) قال :

« **أتيتُ بِالْبُرَاقِ ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ ، فَوْقَ الِحمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ يَضَعُ حَافِرَه عِنْدَ مُنْتَهى طَرفِهِ ، فَرَكِبْتُهُ فَسَارَ بِى حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ المَقْدِسِ فَرَبَطْتُ الدَّابَّةَ بِالَحلْقَةِ الَّتِى يَرْبِطُ فِيهَا الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ دَخلْتُ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجْتُ فَأَتَانِى جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ** .

فقال جبريل : **أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ** ، قال : **ثُمَّ عُرِجَ بِى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ** ، فقيل له : **مَنْ أَنْتَ** ؟ قال : **جِبْرِيلُ** ، قيل : **وَمَنْ مَعَكَ** ؟ قال : **مُحَمَّد** . قيل : **وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ** ؟ قال : **أُرْسِلَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِآدَم فَرَحَّبَ بِى وَدَعَا لِى بِخَيْرٍ** .

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فقيل له : **مَنْ أَنْتَ** ؟ قال : **جِبْرِيلُ** ، قيل : **وَمَنْ مَعَكَ** ؟ قال : **مُحَمَّد** ، قيل : **وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ** ؟ قال : **قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْه ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِابْنَى الخَالَةِ يَحْيَى وَعِيسَى فَرَحَّبا بِى وَدَعَوَا لِى بِخَيْرٍ** .

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلى السَّمَاءِ الثَالِثَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فقيل له : **مَنْ أَنْتَ** ؟ قال : **جِبْرِيلُ** ، قيل : **وَمَنْ معك** ؟ قال : **محمد** . قيل :

وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قال : قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، وإذا هُوَ قَدْ أعْطَى شَطْرَ الحسن ، فَرَحَّبَ بِي ودعا لى بخير .

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبرِيلُ ، فقيل : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : جِبْرِيلُ ، فَقِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّدٌ ، فقيل : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْه ؟ قال : قَدْ بُعِثَ إِلَيْه ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيس فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيرٍ ، يقول « الله » تعالى :

﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾[1]

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ، فقيل : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : جِبْرِيلُ ، فقيل : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّد ، فقيل : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قال : قَدْ بُعِثَ إِلَيه : فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِهَارُون ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إلى السَّمَاءِ السَّادِسَة فَاسْتَفْتَح جِبْرِيلُ ، فقيل : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : جِبْرِيلُ ، قيل : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّدٌ . فقيل : وَقد بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قال : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فَاسْتَفْتَح جِبْرِيلُ ، فقيل : مَنْ

(١) مريم : ٥٧ .

أنْتَ ؟ قال : جِبْرِيلُ ، قيل : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّد ، فَقِيل : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيهِ ؟ فقال : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ فَفُتِحَ لَنَا ، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلاَم ، وإذا هُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى الْبَيْتِ الْمعمورِ ، وإذا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْف مَلَك ، ثُمَّ لاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلى سِدْرَةِ الْمنتَهى ، فَإِذَا أَوْرَاقُهَا كَآذان الفِيَلَة ، وإِذَا ثَمَرُهَا كَالقِلاَلِ ، فَلَمَّا غَشيَها مِن أَمرِ «الله» مَا غَشِيَهَا ، تَغَيَّرَتْ ، فَما أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ «الله» يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا ، قال : فَأَوْحَى «الله» إِلَيَّ مَا أَوْحَى ، وَقَدْ فَرَضَ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، خَمْسِينَ صَلاَةً ، فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إلى مُوسَى ، قال : مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ ؟ قلت : خَمسِينَ صَلاَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، قال : ارْجِعْ إلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لأُمَّتِكَ ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ ، وإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخبرتهم ، قال : فَرَجَعْتُ إِلى رَبِّي ، فقلت : أَيْ رَبِّ خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا ، فَنَزَلْتُ حَتَّى انتَهَيْتُ إلى مُوسَى ، فقال : مَا فَعَلْتَ ؟ فقلت : حَطَّ عَنِّي خَمْسًا ، قال : إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ ، فَارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لأُمَّتِكَ ، قال : فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي وَبَيْنَ مُوسَى ، وَيَحُطُّ عَنِّي خَمْسًا خَمْسًا حَتَّى قال سُبْحَانَهُ وتَعَالَى : يَا مُحَمَّد هُنَّ خَمْسُ صَلَواتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بِكُلِّ صَلاَةٍ عَشْر فَتِلْكَ خَمْسُونَ صَلاَةً ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَة ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ ، فَإِن عَمِلَهَا

كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَة . فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لأُمَّتِك ، فإنها لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ ، فقال رسول الله (ﷺ) : « **لَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّى حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ** » ورواه مسلم بهذا السياق .

وهكذا يتضح لنا سمو مكانة هذه الفريضة ، ومنزلتها الهامة عند «الله» سبحانه وتعالى ، فقد استدعى الحبيب حبيبه ، وعرج به إلى السموات حتى كان فى حضرته القدسية ليخاطبه مشافهة بهذا الأمر الهام ، وبتلك الفريضة المحبوبة : « **الصلاة** » .

فمنزلة الصلاة من الدين كمنزلة الرأس من الجسد فلا دين لمن لا صلاة له ..

روى الطبرانى فى الأوسط والصغير : عن ابن عمر (رضى الله عنهما) ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : « **لاَ إِيمانَ لمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ ، وَلاَ صَلاَةَ لمنْ لاَ طُهورَ لَهُ ، وَلاَ دِينَ لمنْ لاَ صَلاَةَ لَهُ ، إِنَّمَا مَوْضِعُ الصَّلاَةِ مِنَ الدِّينِ كَمَوضِعِ الرَّأْسِ فِي الجسَدِ** » .

وقد اهتم الكتاب والسنة بأمر الصلاة ، والتحذير من تركها . أمر «الله» تعالى بها رسوله :

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾(١)

(١) العنكبوت : ٤٥ .

كما جعلها أساسا أصيلا من أسس التقوى تأتى مرتبتها بعد الإيمان بالغيب مباشرة ، قال تعالى :

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ ﴾(١)

ويجعلها النبى (ﷺ) الفاصل بين المسلم والكافر ، فيقول فيما رواه مسلم : « **بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاَةِ** » ، فليس غريبا أن يقول بعض الأئمة بكفر تاركها ، ويقول آخرون بفسقه ، ويخشى عليه ترك الإيمان .

قال عليه الصلاة والسلام : « **فَانْطَلَقْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مَلَكٍ وَأَمَامَهُ آدَمِيٌّ ، وَبِيَدِ الملكِ صَخْرَةٌ يَضْرِبُ بها هَامَةَ الآدَمِيّ فَيَقَعُ دِمَاغُهُ جَانِبًا ، وَتَقَعُ الصَّخْرَة جَانِبًا** ، وَلمَّا سأل عن ذلك قيل له : **أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا يَنَامُونَ عَنْ صَلاَةِ الْعِشَاءِ الآخِرَةِ ، وَيُصَلُّونَ الصَّلَوَاتِ لِغَيْرِ مَوَاقِيتِها فَهُمْ يُعَذَّبُونَ بِهَا حَتَّى يَصِيرُوا إلى النَّار** » .

إذن فللصلاة أهميتها البالغة . ومكانتها التى لا تطاولها مكانة فهى أول ما يسأل عنه العبد ، ويحاسب عليه يوم القيامة ، بل إنها الميزان الصحيح الذى توزن به سائر الأعمال فحيث كانت الصلاة صالحة

---

(١) البقرة : ٢ - ٣ .

ومقبولة صلح سائر العمل ، وحيث كانت غير صالحة فسد سائر العمل ،

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾(١)

وتكف صاحبها عن الشرور وتسمو به حيث الرضا والكمال ، أما من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له ، لأنه لم يستكمل عبادتها و لم تكن إقامته لها صالحة ومستقيمة ، وقد وضح الرسول (ﷺ) حقيقة الصلاة كميزان للأعمال ، عن عبد الله بن قرط (رضى الله عنه) : قال رسول الله (ﷺ) : « **أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيامَةِ الصَّلاَةُ فَإِنْ صَلَحَتْ صَلَحَ سَائِرُ عَمَلِهِ ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ** » رواه الطبرانى فى الأوسط .

وعلامة الصلاة الصالحة المقبولة أن يؤديها صاحبها متواضعا فيها لعظمة ربه الكبير و لم يستطل على أحد من خلق «الله» فهو ينتظم فى صفوف الطائعين غير مصر على معصيته ، وإنما يحيا فى ذكر «الله» ويتعاطف مع عباد «الله» ، ولقد جاء فى حديث يرويه النبى (ﷺ) عن ربه سبحانه وتعالى : « **إِنَّما أَتقَبَّلُ الصَّلاَةَ مِمن تَوَاضَعَ بِهَا لِعَظَمتى وَلَمْ يَسْتَطِلْ عَلَى خَلْقِى وَلَمْ يَبِتْ مُصِرًّا عَلَى مَعْصِيَتِى وَقَطَعَ النَّهَار فِى ذِكْرِى وَرَحِمَ المسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيْلِ وَالأَرْمَلَةَ وَرَحِمَ**

(١) العنكبوت : ٤٥ .

المصَابَ»[١] ، وتتضح ثمرة الصلاة المقبولة بنهيها صاحبها عن الآثام ، وتكفيرها للخطايا فبالصلاة تتزكى الروح ويتطهر القلب من غفلات الهوى وأدران الخطايا قال (ﷺ) : « **أَرَأَيْتُم لَوْ أَنَّ نهرًا عَلَى بَابِ أَحَدِكُم يَغْتسلُ فِيهِ كُلَّ يَومٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ فَهَلْ يَبْقَى عَلَى بَدَنِهِ مِن دَرَنِهِ شَيءٌ** ؟ قالوا : **لاَ** ، قال : **كَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَمْحُو «الله» بِهِنَّ الْخطَايَا**»[٢] ، فهى إذًا طَهَارة للإنسان وبراءة من الذنوب وإطفاء لما يخترق به الإنسان من المعاصى ، يتضح هذا مما رواه ابن مسعود : « **تَحترقُونَ فَإذا صَلَّيْتم الصُّبحَ غسَلَتْهَا ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ فَإِذَا صَلَّيْتم الظُّهْرَ غَسَلَتْهَا ، ثُمَّ تَحْترقُونَ تَحترقُون فَإِذَا صَلَّيْتُم الْعَصْرَ غَسلَتْهَا ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُون فَإِذَا صَلَّيْتُم المغْربَ غَسَلَتْهَا ثُمَّ تَحْترقُون تَحْتَرِقُون فَإِذَا صَلَّيْتُم الْعِشَاءَ غَسلَتْهَا ثُمَّ تَنَامُونَ فَلاَ تُكْتَبُ عَلَيْكُم حَتَّى تَسْتَيقظُوا** » ، **ويروى عن سلمان الفارسى أنه كان مع النبى** (ﷺ) **تحت شجرة فأخذ منها غصنا يابسا فهزه حتى تحات ورقه** ، ثم قال : **يَا سليمانُ أَلاَ تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا** ؟ قلت : **وَلِمَ تَفْعَلهُ** ؟ قال : **إنَّ المسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوضُوءَ ثُمَّ صَلَّى الصَّلَواتِ الخمْس تَحَاتَتْ خطَايَاهُ كَمَا تَحات هَذَا الوَرَقُ** : ثُمَّ تَلاَ الآية الكريمة : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾[٣]

---

(١) رواه البزار . (٢) رواه البخارى ومسلم . (٣) هود : ١١٤ .

وللصلاة أثرها الإيجابى فى حياة المؤمن فهى لقاء روحى خصب يقف فيه بين يدى الرحمن الرحيم فى مناجاة عذبة يتلقى شحنات روحية تدخله فى رحاب الرضا والقبول قال تعالى فى الحديث القدسى : « **قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَينِي وَبَيْنَ عَبْدِى قِسْمَيْنِ وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ** ، **فَإِذَا** قَالَ الْعَبْدُ : **الْحمْدُ لله رَبِّ الْعَالمين** ، قال «الله» عز وجل : **حَمَدَنِى عَبْدِى** ، فَإِذَا قَالَ : **الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ** ، قال «الله» : **أَثْنَى عَلَّى عَبْدِى** ، فَإِذَا قَالَ : **مَالِكِ يَوم الدِّين** ، قال : **مَجَّدَنِى عَبْدِى** ، فإذا قَالَ : **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين** ، قال «الله» : **هَذَا بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَل** ، فَإِذَا قَالَ : **اهْدِنَا الصِّرَاطَ** المستقيم . **صِرَاط الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم غَيرِ المغْضُوب عليهم ولاَ الضَّالِّينَ** . قال « الله » : **هَذَا لِعَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَل** »[١] .

والصلاة مع هذا كله نظافة للبدن والثوب والمكان ورياضة للجسم والروح والعقل ، فهى إذن قوة روحية وبدنية وخلقية .

أليست - بهذا كله - جديرة بأن تفرض من فوق سبع سماوات ؟ بلى إنها لجديرة أن تفرض فى الليلة المباركة - ليلة الإسراء والمعراج - فهى عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين .

ومن ثمرات الصلاة التى يجنيها المؤمن : أن فيها متنفسا للمتعبين

---

(١) رواه مسلم .

والمنكوبين ، فإذا استعان الواحد منهم بالصبر والصلاة وجد «الله» تعالى معه ، وقد نادى «الله» تعالى عباده المؤمنين :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[1]

وقال تعالى :

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[2]

ولقد كان النبى (ﷺ) إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، فهى مرفأ الراحة والطمأنينة ، ومنزل الأمن والسكينة ، بها يتغلب الإنسان على نوازع الجبن والخور ومواقف الهوى والخمول ، ففيها مقاومة للجزع الذى يصيب بعض الناس وقت نزول الشر ، وعلاج للنفوس المنّاعة للخير حين يكون :

﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[3]

والمصلى لابد أن يكون فى صلاته مستحضرا أحاسيس الخشوع ،

---

(١) البقرة : ١٥٣ . (٢) البقرة : ٤٥ - ٤٦ .

(٣) المعارج : ١٩ - ٢٣ .

لأنه إنما يقف بين يدى الحضرة الإلهية فى دائرة الرحمة والقبض الإلهى فلا ينبغى له أن يكون من المرائين أو الساهين فإن هؤلاء قد توعدهم ربهم على عدم إخلاصهم فى صلاتهم ، قال تعالى :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧ ﴾(١)

ويحث الإسلام مقيم الصلاة بالانتظام فى سلك المجتمع وألا يعيش فى عزلة عن الناس ، فأمر بأداء الصلاة فى جماعة وجعلها أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة بل أن الرسول (ﷺ) هم أن يحرق على قوم بيتهم لأنهم يتخلفون عن الجماعات .

روى مسلم عن ابن مسعود قال : « **مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى «الله» غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظ عَلَى هَؤُلاَءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ فإِنَّ «الله» تعالى شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ (ﷺ) سُنَنَ الْهُدَى وإنهن مِن سُنَنِ الهدَى وإنكم لو صَلَّيْتُم فى بيُوتِكُم كَمَا يُصَلِّى هَذَا المتخَلِّفُ فِى بَيْتِهِ لَتَركْتم سُنَّةَ نَبِيِّكُم وَلَوْ تَرَكْتُم سُنَّةَ نَبِيِّكُم لَضَلَلْتُم وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِن الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مسْجِدٍ من هذه المساجِدِ إلاَّ كَتَبَ « الله » لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَة وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَة وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَة وَلَقَد رَأَيْتَنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْها** أى صَلاَة الجَمَاعَة **إلا مُنَافِق**

(١) الماعون : ٤ - ٧ .

مَعْلُومُ النِّفَاقِ ، وَلَقَد كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يَتَهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ يَسْنِدَانِهِ لمرَضِهِ حَتَّى يُقَامَ فِى الصَّفِّ »[1].

ولقد كانت رحلة الإسراء والمعراج تخطط للمنهج الإلٰهى للحياة الإسلامية فى شتى أطوارها فى الماضى والحاضر والمستقبل ، فالصلاة إن لم تكن فرضت بعد إلا أنه قد رسم لها الصورة الهامة والضرورية ووضح مغبة أمر الذى تتثاقل رأسه عن الصلاة ، فقد مر (ﷺ) على قوم ترضخ رءُوسهم بالصخر ، وكلما رضخت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شىء ، فقال : **مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ** ؟ قال : **هَؤُلاءِ الَّذِينَ تَتَثَاقَلُ رُءُوسُهُم عَنِ الصَّلاَةِ المكْتُوبَة** ، بَل إِنَّهُ قَدْ أدى الصلاة على كيفية خاصة قبل أن تفرض إمامًا بالنبيين ، وفى ذلك ما يدل على عظمة هذه الفريضة وعظمة الرسول (ﷺ) ، ففى رواية ابن مسعود : **ثُمَّ دَخلْتُ المسْجِدَ فَعرفْتُ النَّبِيينَ مَا بَيْنَ قَائِمٍ وَرَاكِعٍ وَسَاجِد ، ثُمَّ أذَّنَ مُؤَذِّنٌ فَأُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَقُمْنَا صُفُوفًا نَنْتظِرُ مَنْ يَؤُمُّنَا ، فَأَخذَ بِيَدى جِبْرِيلُ فَقَدَّمَنِى فَصَلَّيْتُ بِهِم** .

وفى رواية أبى أمامة عند الطبرانى : **ثُمَّ أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَتَدَافَعُوا حَتَّى قَدَّمُوا مُحَمَّدًا** (ﷺ) .

إذن فمكانة هذه الفريضة مكانة جليلة فهى معراج إلى «الله» يعبر بها المؤمن الحدود الدنيا ويستشرف فى سمو روحى الأجواء الإلٰهية

---

(١) رواه مسلم .

ويجتاز طبقات البعد عن «الله» فيقترب من رحابه ويأنس فى مرافئ الرحمة والسلام .

ويقول الإمام القشيرى : سمعت الأستاذ أبا على الدقاق (رضى الله عنه) يقول : إن نبينا (عليه السلام) أتى للأمة بالمعراج على التحقيق فإن الصلاة لنا بمنزلة المعراج ، وقد كان المعراج له (عليه السلام) ثلاث منازل من الحرم إلى المسجد الأقصى ، ثم من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى ، ثم منها إلى قاب قوسين أو أدنى ، فكذلك لنا الصلاة ثلاث منازل القيام ثم الركوع ثم السجود وهو نهاية القرب ، قال الله تعالى :

﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ١٩ ﴾[1]

فإذا ما أهلت أيام هذه الذكرى ناضرة باهرة فعلى المسلمين أن يعيشوا ساعاتها البيضاء متصلين بحبال «الله» ، ورافعين شعار التوحيد ومقيمين الصلاة ، وليكن لهم من طاقات هذه الذكرى وأنماط الجهاد فيها ما يدفعهم إلى استخلاص بيت المقدس الذى انتهت إليه رحلة الإسراء وبدأ منه المعراج وصلى فيه النبى (ﷺ) بالأنبياء عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام .

---

(١) العلق : ١٩ .

العطـــاء الإلٰهـــى

وكان عطاء «الله» تعالى لرسوله (ﷺ) فى هذه الرحلة المباركة على حسب كرم « الله » العزيز الوهاب ، وعلى حسب عظمته وحكمته ، فكان عطاء كثيرا وجزيلا ، بعد فترة أوذى فيها الرسول (ﷺ) فتحمل ، وصبر صبرا جميلا ، إنه عطاء من نوع فريد لا مثيل له ..

وفى لقاء الرسول (ﷺ) بالأنبياء ، أثنوا على ربهم ، فقال إبراهيم عليه السلام : **الحَمْدُ «لله» الَّذِى اتَّخذنى خليلاً ، وَأَعْطَانِى مُلْكًا عَظِيمًا ، وَجَعَلَنِى أُمَّةً يُؤْتَمُّ بِى ، وَأَنْقَذَنِى مِنَ النَّار ، وَجَعَلَهَا عَلَىَّ بَرْدًا وَسَلامًا** ، ثُمَّ إِنَّ مُوسَى (عَلَيْهِ السَّلام) أثنى عَلَى رَبِّه فَقَال : **الحَمْدُ «لله» الَّذِى كَلَّمَنِى تَكْلِيمًا ، وَجَعَلَ هَلاكَ آل فِرْعون ونجاة بَنى إسْرَائِيل عَلَى يَدَىَّ وَجعلَ مِنْ أُمَّتِى قوْمًا يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** ، ثُمّ إن داود (عليه السلام) أثنى على ربه فقال : **الحَمْدُ «لله» الذِى جَعَلَ لِى مُلْكًا عَظِيمًا ، وَعَلَّمنى الزَّبورَ وألانَ لِىَ الحديدَ وَسَخَّرَ لِىَ الجبَالَ يُسَبِّحنَ وَالطَّير وَأَعْطَانِى الحِكْمَةَ وَفَصل الخِطَابِ** ، ثُمّ إن سليمان عليه السلام أثنى على ربه فقال : **الحَمْدُ «لله» الَّذِى سخَّرَ لِىَ الرِّيَاحَ وَسَخَّرَ لِىَ الشَّيَاطِينَ يَعْمَلُونَ لِى مَا شِئْتُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجواب وَقُدُورٍ رَاسِيات ، وَعَلَّمَنى مَنْطِقَ الطيْر وَأتَانِى مِن كُلِّ شَىْءٍ فَضْلاً وَسَخَّرَ لِىَ جُنُودَ**

الشَّيَاطِين وَالإنْس وَالطَّيْرِ وَفضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِن عِبَادِهِ المؤمِنِين وَأتَانِى مُلْكًا عَظِيمًا لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى وَجَعَل لِى مُلْكًا طَيِّبًا لَيس فِيِهِ حِسَاب ؛ ثم إن عيسى (عليه السلام) أثنى على ربه عز وجل فقال : الحمْدُ «لله» الَّذِى جَعَلنى كَلِمَتَهُ ؛ وَجَعَلَ مَثِلى كَمَثَلِ آدَمَ . خلَقَهُ مِنْ ترَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُون وَعَلَّمنى الْكِتَابَ وَالحكمَةَ وَالتَّورَاةَ وَالإنْجِيلَ ؛ وَجعَلَنِي أخلُق من الطِّين كَهَيْئَةِ الطَّيْر فَأنْفخُ فيِهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ «الله» وَجَعَلنى أبْرِىءُ الأَكْمهَ وَالأبْرصَ وَأُحْيِ الموتَى بِإِذْنِ «الله» ؛ وَرَفَعَنِي وَطَهَّرنى وَأَعَاذَنِي وَأُمِّى مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . فَلَم يَجْعَل للشَّيْطَان عَلَيْنَا سَبِيلاً ، ثم إن محمدًا (ﷺ) أثنى على ربه عز وجل فقال : « كُلُكُمْ أَثْنَى عَلَى رَبِّه وَإِنِّى مُثْنٍ عَلَى رَبِّى فقال : الَحمْدُ «لله» الَّذِى أَرْسَلَنِي رَحْمَةً لِلْعَالمينَ ؛ وَكَافَّة لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذيرًا وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الْفُرْقَانَ فِيه بَيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ وَجَعَل أُمَّتِي خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ وَجَعَلَ أُمَّتِي أُمَّةً وَسَطًا وَجَعَلَ أُمَّتِي هُمُ الأَوَّلِين وَهُمُ الآخرِينَ وَشَرَحَ لِى صَدرِى وَوَضَعَ عَنِّى وزْرِى وَرَفَعَ لِي ذِكْرِى وَجَعَلنِي فَاتِحًا وَخَاتمًا » فقال إبراهيم عليه السلام : بهَذَا فَضَلَكُم مُحَمَّد (ﷺ) .

. وإذا تتبعنا هذا العطاء الإلهى الغامر : نخلص منه بنتائج هامة يجب الوقوف عندها ؛ والتأسى بالرسول (ﷺ) فيها :

أولا : يوجه « الله » تعالى رسوله (ﷺ) عقب كل فضل أفاءه عليه

بالتوجه إليه شكرا لنعمه وتثبيتا لقلبه الشريف، فبعد أن كرمه بالإسراء والمعراج جاء التوجه بعد ذلك بالهجرة ثم ، بمراحل الجهاد وبعد أن أتاه السبع المثانى والقرآن العظيم وأمره بالجهر بالدعوة جاء فى آخر السورة بالتوحيد الكريم : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾(١)

وبعد أن ساق له عطاءه بالشهادة والبشارة والإنذار والدعوة إلى «الله» فى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾(٢)

جاء عقب هذا العطاء ووجهه إلى التوكل على «الله» فى قوله تعالى :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾(٣)

وفى سورة الضحى بعد أن ساق «الله» آلاءه ونعماءه جاء فى آخر السورة بقوله : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾(٤)

وفى سورة الانشراح يذكر بعد تعداد النعم قوله :

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾(٥)

وفى سورة الكوثر يذكر بعد عطائه لرسول الله (ﷺ) قوله :

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾(٦)

---

(١) الحجر : ٩٨ ، ٩٩ . (٢) الأحزاب : ٤٥ . (٣) الأحزاب : ٣ .

(٤) الضحى : ١١ . (٥) الانشراح : ٧ ، ٨ . (٦) الكوثر : ٢ ، ٣ .

وفى سورة النصر بعد أن يذكر ما مَنَّ عليه بالنصر والفتح يوجهه بقوله :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾(١)

وهذا المنهج الذى اتبعه «الله» مع رسوله (ﷺ) إنما يشكل تواصلا بينهما ، واستمرارا فى الإنعام من «الله» وفى العبادة من الرسول (ﷺ) وهذا هو شأن الحبيب مع حبيبه .

ثانيا : تتمثل الأسوة الحسنة للمؤمنين برسولهم (ﷺ) فهو مع مكانته العظيمة ، ومع غفران «الله» له لما تقدم من ذنبه وما تأخر يواصل العبادة شكرا «لله» تعالى فيقوم الليل متهجدا راكعا ساجدا حتى تتورم قدماه ، وتفيض عيناه بالدموع ، حتى يسمع لصدره أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء ، والخشية من «الله» ، فتقول له السيدة عائشة (رضى الله عنها) : **أَتَفْعَلُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَقَدْ غَفَرَ «الله» لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ فَيُجِيبُهَا قَائِلا : أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟!**

وما أسمى هذه القدوة به إذًا ، وما أكرمها .. ولقد أمرنا «الله» تعالى أن نتأسى به فقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾(٢)

---

(١) النصر : ٣ . (٢) الأحزاب : ٢١ .

ولقد مَنَّ «الله» تعالى على المؤمنين برسوله (ﷺ)الذى تمثلت فيه الأسوة الحسنة قولا وعملا ، ووجه سبحانه الناس إلى أسس السعادة التى جاء بها رسوله (ﷺ) ، وأنها تتمثل فى تزكية نفوسهم وتطهيرها من كل رجس أو رذيلة ، تدنس حياتهم كما تتمثل كذلك فيما جاء به الوحى الإلهى فى الكتاب والسنة ، فالأسوة الحسنة إذن تمثلت فى جانبين :

الجانب الأول : هو الجانب السلوكى التطبيقى الذى شاهدوا فيه حياة رسولهم (ﷺ) ، وما يؤديه من أعمال ، ومجاهدته فى تزكية نفوسهم وتطهير بيئتهم .

والجانب الثانى : جانب التعليم وهو الجانب النظرى الذى يحضهم فيه على اتباع وحيه من الكتاب والحكمة ، ويعلمهم إياه ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾[1]

---

(١) آل عمران : ١٦٤ .

الهجرة فى سبيل الله

وضح «الله» حال طائفة آثرت الهوان على الهجرة فى سبيل «الله» ، فاستكانوا للظلم الذى يقع عليهم ، فوضح نهايتهم الأليمة ، وعاقبتهم الوخيمة حيث رضوا بالهوان والإقامة بين الكفار الذين يصدونهم عن سبيل الله ثم استثنت الآيات أصحاب الأعذار الصحيحة من هذا الوعيد فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾[1]

ولما كانت الهجرة فى سبيل «الله» منطلقا للنفوس المؤمنة ، ومتنفسا لها ، تتمتع فى الهجرة بحريتها الإنسانية ، وكرامتها الآدمية وأداء واجبات دينها دون اعتداء أو صد عنه ، لما كانت الهجرة طريقا لهذا

---

(١) النساء : ٩٧ - ٩٩ .

كله فقد وعد «الله» تعالى من يهاجر فى سبيله أن يكون فى ضمان «الله» وأمانه ، وفى يسر فى كل طرقه ، وسعة فى عيشه :

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾(١)

يجد مهاجرا وطريقا يراغم بسلوكه قومه ، ومتحولا من الرغام وهو التراب . أو مكانا للهجرة ومأوى للسكنى والحياة الطيبة الآمنة يجد فيه الخير الكثير والسعة فى الرزق ، وإنما تكون الهجرة خالصة فى سبيل «الله» سبحانه ، إذا تمحصت نية المهاجر فى سبيل الحق وخلصت فى سبيل «الله» تعالى ، بإقامة دينه ونصرته وإظهاره على الدين كله .

روى البخارى بسنده عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : «**إنَّما الأعمَالُ بالنِّيَّاتِ وَإنَّما لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نوى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى «الله» وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلَى «الله» وَرَسُولِه وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إلى امْرَأةٍ يَنكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إلَى مَا هَاجَرَ إلَيْهِ**»(٢) .

وقد روى أن ضمرة بن العيص وقيل : جندب بن ضمرة كان من المستضعفين وكان مريضا فلما سمع ما أنزل «الله» فى الهجرة ، قال : أخرجونى ، فهيئ له فراش ثم وضع عليه وخرج به فمات فى الطريق بالتنعيم - وهو موضع بمكة - فأنزل «الله» فيه :

---

(١) النساء : ١٠٠ .　　(٢) رواه البخارى .

﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾(١)

وقد قسم العلماء الذهاب فى الأرض قسمين : هربا ، وطلبا .

فالأول ينقسم إلى ستة أقسام :

أولا : الهجرة وهى الخروج من دار الحرب إلى دار السلام ، وكانت فرضا فى أيام النبى (ﷺ) ، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة والتى انقطعت بالفتح هى القصد إلى النبى (ﷺ) حيث كان .

ثانيا : الخروج من أرض البدعة يقول مالك : **لاَ يَحِلُّ لأَحدٍ أنْ يُقِيمَ بِأَرْضٍ يُسَبُّ فِيهَا السَّلَفُ** ، وقال ابن العربى : **هَذَا صَحِيحٌ ، فإنَّ المنكرَ إذا لَمْ تَقْدِرْ أَن تُغيِّرهُ فَزُلْ عَنْهُ قال الله تعالى :**

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ ﴾(٢)

ثالثا : الخروج من أرض غلب عليها الحرام ، فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم .

رابعا : الفرار من الأذية فى البدن ، وممن فعل ذلك إبراهيم (عليه

---

(١) النساء : ١٠٠ . (٢) الأنعام : ٦٨ .

السلام) فإنه لما خاف من قومه قال : ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ﴾(١) وقال مخبرا عن موسى : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾(٢)

خامسا : خوف المرض فى البلاد الوخمة والخروج منها ، وقد استثنى من ذلك الخروج من الطاعون فمنع «الله» منه بالحديث الصحيح ، روى أبو داود بسنده عن عبد الرحمن بن عوف قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : **إِذَا سَمِعْتُم بِهِ بِأَرْض فَلاَ تَقْدُمُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرضٍ وَأَنْتُم بِهَا فَلا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»**(٣).

سادسا : الفرار خوف الأذية فى المال فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه . وأما قسم الطلب ، فمنه طلب الدين ، ومنه طلب الدنيا .

فطلب الدين : كالسفر للعبرة كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾(٤)

وسفر الحج والسفر للجهاد أو المعاش أو التجارة والكسب الزائد على القوت قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(٥) أى التجارة .

---

(١) العنكبوت : ٢٦ . (٢) القصص : ٢١ . (٣) رواه البخارى .

(٤) يوسف : ١٠٩ . (٥) البقرة : ١٩٨ .

وكالسفر فى طلب العلم أو قصد البقاع الشريفة المكرمة ، روى البخارى ومسلم ، عن أبى هريرة أن رسول الله (ﷺ) قال : «**لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إلاَّ إلى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ : المسْجِدِ الحَرَام ومَسْجِدِى هَذَا وَالمسْجِد الأَقْصَى**»(١) ومثل ذلك : المرابطة على الثغور للدفاع عنها ، والسفر لزيارة الإخوان فى «الله» قال رسول الله (ﷺ) : «**زَارَ رَجُلٌ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ فَأَرْصَدَ «الله» مَلَكًا عَلَى مُدْرَجَتِهِ** – أَىْ أَقْعدهُ عَلَى طَرِيقِه يَترقَّبُ – فقال : **أَيْنِ تُرِيدُ** ؟ فقال : **أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ**، قال : **هَلْ لَكَ عليه مِن نِعْمَةٍ تَرُبُّها عَلَيْهِ**– أى تُصلحها– قال : **لاَغَيْر أَنِّى أَحْبَبْتُهُ فِي «الله» عَزَّ وجَلَّ** قال : **فَإِنِّى رَسُولُ الله إِلَيْكَ بِأَنَّ «الله» قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فيه**»(٢) وكما وعد «الله» تعالى المهاجر باليسر والسعة فقد تكفل سبحانه بأجر عظيم له إن مات ولو بعد مجاوزته الموضع الذى كان منه حتى وإن لم يتعرض لعناء السفر أو وعثاء الطريق ، فإن نيته كافية فى حصول المثوبة والأجر ، وقد أكد «الله» وجوب الثواب وثبوته ؛ و «لله» سبحانه وتعالى أن يوجب على نفسه ما شاء ، وليس لغيره أن يوجب شيئًا ما عليه تعالى «الله» عن ذلك علوا كبيرا :

﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾(٣)

(١) رواه البخارى ومسلم . (٢) رواه مسلم . (٣) النساء : ١٠٠ .

الهجرة فى ضوء القرآن والسنة

وقد رغب «الله» تعالى المسلمين فى الهجرة ، مبينا لهم نتائجها وثمراتها ، وبأنهم لا ينبغى أن يضيقوا بها ، أو تذهب بهم الظنون مذاهب شتى ، لأن «الله» الذى يهاجرون إليه ، وفى سبيله هو القادر على كل شىء ، ولسوف يجدون أماكن كثيرة تصلح لهجرتهم فيها بسطة فى الرزق وسعة : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾[1]

كما بين «الله» سبحانه أن من يخرج من بيته مهاجرا بنية صادقة إلى «الله» ورسوله ثم يدركه الموت أثناء هجرته فقد وقع أجره على «الله» ، وحصل له الثواب الكامل ، وروى عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس أنه ضمرة بن العيص ، روى عن سعيد بن جبير أنه العيص ابن ضمرة ، كان مريضا ، فلما سمع قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾[2]

---

(١) تبارك : ١٥ .   (٢) النساء : ٩٧ .

قال : أخرجونى ، وخرج مهاجرا ، حتى مات فى الطريق ، فنزل :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾(١)

والوعيد السابق لمن لم يهاجر ، إنما هو لغير المستضعفين ، أما بالنسبة للمستضعفين فقد استثناهم «الله» من هذا الوعيد فى قوله تعالى :

﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾(٢)

ووعد «الله» تعالى للمهاجرين فى سبيله بأن يسهل لهم سبل الحياة الطيبة الكريمة ، هذا الوعد خاص بمن تمحصت نية هجرته لمرضاة «الله» ، وإقامة دينه ، عن عمر بن الخطاب (رضى الله تعالى عنه) ، سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : «**إنَّما الأَعْمَالُ بِالنِّيات وإنَّما لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا أوِ امْرأةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إلى مَا هَاجَرَ إليه**» ، وفى بعض الروايات زيادة : (**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى «الله» وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى «الله» وَرَسُوله** ...) وكما

(١) النساء : ١٠٠ . (٢) النساء : ٩٨ ، ٩٩ .

تناولت الآيات والأحاديث أهمية الإخلاص فى الهجرة تناولت كذلك بيان ثمراتها وهى أن «الله» مع المهاجرين ، وأن لهم مغفرة ورحمة جزاء صبرهم وتحملهم وجهادهم :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾(١)

وبالهجرة تحول الولاء من الحسب والنسب والأسرة والقبيلة كما كان فى مكة إلى الإيمان بالهجرة «لله» ولرسوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾(٢)

وهناك نوع من الهجرة ، بينته السنة الشريفة ، هو الهجرة الباطنة ، عن عبد الله بن عمرو عن النبى (ﷺ) قال : **«المسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالمهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى الله عَنْهُ»**(٣) ، فالهجرة إذًا نوعان :

هجرة ظاهرة : وهى الفرار بالدين من الفتن ، **وهجرة باطنة** : وهى ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان ، فليس لواحد من المهاجرين أن يتكل على هجرته ، حتى يتمثل أوامر الشرع

---

(١) النحل : ١١٠ . (٢) الأنفال : ٧٢ . (٣) رواه البخارى .

ونواهيه ، وليس لمن لم يدرك الهجرة أن يضيق بفواتها ، فإنه يمكنه أن يحصل حقيقة الهجرة وثوابها بأن يهجر ما نهى «الله» عنه . بعد هذا نتجه إلى الهجرة النبوية التى كانت تمثل قمة المعانى السامية فى إخلاص النية لله ، ولنبدأ مع الرحلة منذ إعلان الدعوة ولقاء الرسول (ﷺ) بالقبائل .

لقاء الرسول (ﷺ) بالقبائل

منذ السنة الرابعة لمبعث الرسول (ﷺ) ، وقد قام بإعلان الدعوة بعد أن مكث ثلاث سنوات يدعو مستخفيا ، قام عشر سنين بعد ذلك يلتقى بالناس ، ويوافيهم فى المواسم والأسواق ، وينتظرهم على أبواب الطرق ، ويتبع الحاج فى المنازل ، وفى المواسم بعكاظ ومجنة وذى المجاز ، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة ، وكان يسأل عن قبائلهم ، ويأتى إليهم داعيا إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، قائلا لهم : **«يَاأَيُّهَا النَّاس قُولُوا لاَ إِلَه إلاَّ الله تُفْلِحُوا وَتَملكُوا بِهَا الْعَرَب وَتَذِلّ لَكُم الْعَجَم ، وإِذَا آمَنْتُم كُنْتُم مُلُوكًا فى الجَنَّة»** فكان منهم من رد بسخرية ، ومنهم من رد ردا قبيحا كقبيلة بنى حنيفة أهل مسيلمة الكذاب ، ومنهم من طلب أن تكون لهم الرياسة من بعده كقبيلة بنى عامر ، فلما قال لهم : « **إِنَّ الأَمْرَ «لله» يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاء**» أعرضوا عن دعوته وانصرفوا . أما أبو لهب فكان وراءه يقول : لا تطيعوه فإنه صابىء كاذب فيردون على رسول الله

(ﷺ) ردا قبيحا ويؤذونه قائلين : «**أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك**» فكان يدعوهم إلى «الله» بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتى هى أحسن ، ويقول : «**اللَّهُمَّ لَو شِئْتَ لَمْ يَكُونُوا هَكَذَا**» ومن بين هذه القبائل : بنو عامر بن صعصعة ، ومحارب بن خصفة ، وفزارة ، وغسان ، ومرة ، وحنيفة ، وسليم، وعبس، وبنو نضر ، وبنو البكاء ، وكندة ، وكلب ، والحارث بن كعب ، وعذرة ، والحضارمة .

الأوس والخـزرج

شاء «الله» تعالى أن يحق الحق ويبطل الباطل ، وأن ينصر نبيه ، وينجز ما وعد فساقه إلى حى من الأنصار ، فجلس إليهم ودعاهم إلى «الله» ، وتلا عليهم من القرآن فآمنوا وصدقوا ، وآووا ونصروا .

ويقال : إن أول من أسلم ثمانية نفر .

وقيل : إن أول من أسلم من الأنصار أسعد بن زرارة وذكوان ابن عبد قيس عندما خرجا إلى مكة يتنافران إلى عتبة بن ربيعة فقال لهما : قد شغلنا هذا المصلى عن كل شيء يزعم أنه رسول الله ، وكان أسعد بن زرارة وأبو الهيثم يتكلمان بالتوحيد فى طيبة ، فقال ذكوان ابن عبد قيس لأسعد بن زرارة حين سمع كلام عتبة : دونك هذا دينك ، فقاما إلى رسول الله (ﷺ) فعرض عليهما الإسلام فأسلما ثم رجعا إلى المدينة فأسلم أبو الهيثم .

وقيل : إن أول من أسلم رافع بن مالك الزرقى ومعاذ بن عفراء حينما خرجا معتمرين فذكر لهما أمر رسول الله (ﷺ) فأتياه فعرض عليهما الإسلام فأسلما وقدما المدينة ، وكان أول مسجد قرئ فيه القرآن بالمدينة مسجد بنى زريق .

وقيل : إن رسول الله (ﷺ) خرج من مكة فمر على ثمانية نفر من أهل يثرب فعرض عليهم الإسلام فأسلموا ، وقال لهم رسول الله (ﷺ) : **تمنعون لى ظهرى حتى أبلغ رسالة ربى** ، فطلبوا منه أن يدعهم حتى يرجعوا إلى عشائرهم لعل «الله» يصلح ذات بينهم ، وضربوا معه موعدا فى موسم العام المقبل .

ويقال : إن رسول الله (ﷺ) خرج فى الموسم الذى التقى فيه بالنفر الستة من الأنصار ، فقال لهم : **أحلفاء يهود** ؟ قالوا : **نعم** ، فدعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن ، فأسلموا ، وهم :

١ – أسعد بن زرارة .

٢ – عوف بن الحارث بن عفراء ، وهما من بنى النجار .

٣ – رافع بن مالك من بنى زريق .

٤ – قطبة بن عامر بن حديدة من بنى سلمة .

٥ – عقبة بن عامر بن نابئ من بنى حرام .

٦ – جابر بن عبد الله بن رئاب من بنى عبيد بن عدى بن سلمة.

وهذا ما نرجحه ، فقد روى أنه لم يكن قبلهم أحد ، وقال محمد

ابن عمر : هذا عندنا أثبت ما سمعنا منهم ، وهو المجتمع عليه وكان ذلك فى السنة الحادية عشرة للبعثة ، وقد كان النزاع مستمرا بين الأوس والخزرج ، وكانت الحروب مشتعلة بينهم لا يهدأ لهم بال ، وبجوارهم يهود بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ، وكثيرا ما كان اليهود يذكرون أن نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه ، وكانوا يقولون للخزرج إذا اختلفوا معهم : إن نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما دعا رسول الله (ﷺ) هؤلاءِ النفر إلى «الله» فنظر كل منهم إلى صاحبه قائلا : و«الله» إنه للنَّبِىُّ الذى تواعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه .

وسارعوا بإجابة الدعوة إلى الإسلام ، وقالوا : **«إنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا - وَهُمُ الأوسُ وَالخزرج - وَلاَ قَومَ بَينهُم مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُم ، فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُم «الله» بِكَ ، وَأَنْ يَجْمَعَهُم عَليك فَلاَ رَجُل أعز مِنْكَ»** وحين عاد هؤلاء إلى قومهم كانوا دعاة مخلصين للإسلام ، فما بقيت دار من دورهم إلا وعبقت بنفحات الإسلام ، وسيرة الرسول (ﷺ) .

بيعة العقبة الأولى

تمت بيعة العقبة الأولى فى السنة الثانية عشرة للبعثة ، وسميت بهذا الاسم ، لأنها وقعت عند العقبة ، وقد لقى عندها الرسول (ﷺ) اثنى عشر رجلا ، اثنان من الأوس وهما : أبو الهيثم بن التيهان ، وعويم ابن ساعدة من بنى عمرو بن عوف ، وعشرة من الخزوج وهم : أسعد بن زرارة ، وعوف ومعاذ ابنا الحارث من بنى النجار . وذكوان بن عبد قيس ، ورافع بن مالك من بنى زريق ، وعبادة بن الصامت ، ويزيد بن ثعلبة أبو عبد الرحمن من بنى عوف بن الخزرج ، وعباس بن عبادة بن نضلة من بنى عامر بن عوف . وعقبة ابن عامر بن نابىء من بنى سلمة ، وقطبة بن عامر بن حديدة من بنى سواد . وقد أسلم هؤلاء جميعا ، وبايعوا رسول الله (ﷺ) على بيعة النساء ، فإن مبادىء هذه البيعة تتفق مع مبادىء بيعة النساء التى جاءت فى سورة الممتحنة قال «الله» تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾[1]

---

(١) الممتحنة : ١٢ .

وفى الحديث الصحيح الذى أخرجه البخارى ومسلم ، عن عبادة ابن الصامت : بَايَعَنَا رَسُولُ الله لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ الأُولى : **«أَنْ لاَ نُشْرِكَ بـ «الله» شَيْئًا ، وَلا نَسْرِقَ وَلاَ نَزْنِى ، وَلاَ نَقْتُلَ أَوْلاَدَنا وَلاَ نَأْتِى بِبُهْتَانٍ نفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينا وَأَرْجُلِنَا وَلاَ نَعْصِيهِ فى مَعْرُوفٍ ، قال ، فَإِن وَفَيْتُم فَلَكُمُ الجنَّة ، وَإِن غَشيتُم مِنْ ذَلِك شَيْئًا فَأُخِذْتُمْ بِحَدِّهِ فى الدُّنْيَا فَهُو كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَإِن سترْتُم عَلَيْه إلى يَوم الْقِيَامَةِ فَأَمْرُكُم إلى «الله» إن شَاءَ عَذَّبَ وَإِن شَاءَ غَفَر»**[1] .

وقد بعث رسول الله (ﷺ) معهم مصعب بن عمير العبدرى ليقرئهم القرآن ويشرح لهم تعاليم الإسلام .. وكان لهذه البيعة أثرها الهام ، وكان لمصعب بن عمير أثره الجليل بما بثه من مبادىء الدين وسماحته ، ويسره ، وما اشتملت عليه تعاليمه من فضائل تصلح بها الدنيا ، وتقوم على أساسها خير أمة أخرجت للناس ، لذا أقبل الناس على اعتناق الإسلام ، ولم تبق دار إلا وأشرق فيها نور الإسلام .. وعندما عاد مصعب بن عمير فى موسم الحج إلى مكة ، بعد أن مكث عاما بالمدينة أخبر رسول الله (ﷺ) بخبر المسلمين هناك وإقبال الناس على الدين ، وأنهم سيأتون فى موسم الحج إن شاء «الله» ...

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

بيعة العقبة الثانية

تمت بيعة العقبة الثانية فى السنة الثالثة عشرة للبعثة ، حيث قدم ثلاثة وسبعون شخصا ومعهم امرأتان إلى مكة ؛ ليدعوا رسول الله (ﷺ) للهجرة إليهم ، ووعدهم الرسول (ﷺ) منى وسط أيام التشريق ليلة النفر الأول فى الشعب الأيمن إذا انحدروا من منى بأسفل العقبة حيث المسجد اليوم ، وكان قد سبقهم إلى ذلك الموضع .

قال أسعد بن زرارة : فكان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب ، فقال : يا معشر الخزرج إنكم قد دعوتم محمدا إلى ما دعوتموه إليه ، ومحمد من أعز الناس فى عيشرته يمنعه – و«الله» – منا من كان على قوله ، ومن لم يكن منا على قوله يمنعه للحسب والشرف ، وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب ، واستقلال بعداوة العرب قاطبة ترميكم عن قوس واحد فارتأوا رأيكم وائتمروا بينكم ولا تفرقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع ، فإن أحسن الحديث أصدقه .

فقال البراء بن معرور : قد سمعنا ما قلت ، وإنا – و «الله» – لو كان فى أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله (ﷺ) ، قال : وتلا رسول الله (ﷺ) عليهم القرآن ثم دعاهم إلى «الله» ورغبهم فى الإسلام ، وذكر

الذى اجتمعوا له ، فأجابه البراء بن معرور بالإيمان والتصديق ثم قال : يا رسول الله بايعنا فنحن أهل الحلقة - أى السلاح - ورثناها كابرا عن كابر ، ويقال : إن أبا الهيثم بن التيهان كان أول من تكلم فأجاب إلى ما دعا إليه رسول الله (ﷺ) وصدقه ، وقالوا : نقبله على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، ولغطوا فقال العباس بن عبد المطلب ، وهو آخذ بيد رسول الله (ﷺ) : أخفوا جرسكم فإن علينا عيونا ، وقدموا ذوى أسنانكم فيكونون هم الذين يلون كلامنا منكم ، فإنا نخاف عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم، فتكلم البراء بن معرور ، فأجاب العباس بن عبد المطلب ثم قال : ابسط يدك يا رسول الله ، فكان أول من ضرب على يد رسول الله (ﷺ) البراء بن معرور ، وقيل أبو الهيثم، وقيل أسعد بن زرارة ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه ، فقال رسول الله (ﷺ) : **إنَّ مُوسَى أَخَذَ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ اثنى عَشرَ نَقِيبًا فلاَ يَجِدنَّ مِنْكم أَحَد فِي نَفْسِهِ أنْ يُؤْخذَ غَيْرُهُ ، فإنَّمَا يَخْتَارُ لِي جِبْرِيلُ** ، فَلَمَّا تَخيرَهُمْ . قال للنقباء : **أَنْتُم كُفَلاَءُ عَلَى غَيْرِكُم كَفَالَةَ الحَوارِيِّين لِعيسَى ابن** مريم ، **وَأَنا كَفيلٌ عَلَى قَوْمِي** . قالوا : نعم ، ثم انفضوا إلى رحالهم .

الهجـــــــــرة

هجـرة المسلمين :

بعد بيعة العقبة الثانية طابت نفس الرسول (ﷺ) ، خاصة بعد أن جعل « الله » له منعة وقوة . فلما اشتد إيذاء المشركين للمسلمين شكا المسلمون إلى رسول الله (ﷺ) ، واستأذنوه فى الهجرة ، فقال : «**قَدْ أُرِيتُ دَارَ هِجرتِكُم ، أُريتُ سَبخةً ذاتَ نخل بين لابَتَينِ** – وهما الحرتان – **وَلَو كَانت السّراةُ أرضَ نَخلٍ وَسِباخ لَقُلتُ هِيَ**» ثم مكث أياما ثم خرج إلى أصحابه مسرورا ، فقال «**قد أُخبرتُ بِدَارِ هِجرَتكم ، وَهِىَ يَثرب ، فَمن أَرَادَ الخروجَ فَليَخرُج إليَها**» ؛ فأخذ القوم يخرجون ذاهبين إلى هناك أفرادا وجماعات فى سِرِّيَّةٍ تامة ، ونزلوا على الأنصار الذين آووا ونصروا . وهكذا خرج المسلمون جميعا حتى لم يبق منهم بمكة إلا رسول الله (ﷺ) وأبو بكر وعلى .. ومن بين من خرج من المسلمين جماعة جمعوا بين الحسنيين ، ونالوا شرف المهاجرين وشرف الأنصار ، وهؤلاء هم : ذكوان بن عبد قيس ، وعقبة بن وهب بن كلدة ، والعباس بن عبادة بن نضلة ، وزياد بن لبيد ، وهؤلاء النفر من الأنصار ، كانوا قد بايعوا الرسول (ﷺ) فى العقبة الثانية ثم رجعوا إلى المدينة ، فلما قدم أول من هاجر إلى قباء خرجوا إلى الرسول

(ﷺ) بمكة حتى قدموا مع أصحابه فى الهجرة فهم مهاجرون أنصاريون .

وتمت هجرة جميع المسلمين فى سِرِّية تامة ، إلا ما كان من عمر ابن الخطاب (رضى الله عنه) ، فيما رواه عنه المؤرخون ، فإنه قد هاجر علانية ، وتحدى قريشا ، قائلا : **مَن أرادَ أن تثكلَه أمُّه أو ييتَّم وَلده ، أو ترمَّلَ زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى** ، فما تبعه أحد ..

وهاجر طلحة بن عبيد الله ، وصهيب بن سنان الرومى معا ، وكان لصهيب مال ، فأراد المشركون أن يقتلوه ويأخذوا ماله ، فما إن اقتربوا منه إلا قال لهم : **قَد تَعلَمُونَ أنّى مِن أرمَاكم رَجُلاً ، وو«الله» لاَ تَصِلُونَ إلَيّ أو يموت منكم عدد كبير ، فاترُكُونِى وَشَأنى** ، قالوا : فاترك مالك ، فألقى إليهم ما معه من مال ، ودلهم على ماله بمكة ليأخذوه ، فانصرفوا ، وفى حقه نزل قول «الله» تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾[1]

أما أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) فقد استأذن فى الهجرة فقال له رسول الله (ﷺ) : **لاَ تَعْجَل لَعَلَّ «الله» يَجْعَل لَكَ صَاحِبًا** ، وأما

(١) البقرة : ٢٠٧ .

على بن أبى طالب (رضى الله عنه) فقد بقى مع الرسول (ﷺ) بمكة . بل وبقى بعده ليقوم برد الودائع التى كانت عنده إلى أصحابها .

حَـولَ أَسبَـابِ الهِـجـرَةِ

علمنا فيما سبق أن رسول الله (ﷺ) قد أذن للمسلمين بالهجرة بعد أن رأى أصحابه من أعدائهم أذى كثيرا ، فلما هاجروا نمى إلى علم المشركين خبر هجرتهم ، وعرفوا أنهم قد أصبحوا فى منعة وقوة ، فخافوا أن يلحق بهم رسول الله (ﷺ) ، ويكون معهم قوة هائلة يجابههم بها فلا يستطيعون أن يقاوموه ، وعندئذ يتطور الموقف من أزمة دينية إلى أزمة أخرى اقتصادية ، قد تؤدى إلى ضياع بضاعتهم ، وكساد تجارتهم ، لأن يثرب ذات موقع حيوى ، فهى تقع فى الطريق بين مكة والشام ، فرأوا أن هذه الدعوة وما تحمله من دين أصبحت تشكل خطرا جسيما على عقيدتهم وعلى تجارتهم ، وعلى مستقبل حياتهم كله ، فنهضوا ليعدوا للأمر عدته ، واجتمعوا فى دار الندوة وجمعوا أهل الحجى والرأى فيهم ، ليدلى كل واحد منهم برأيه ، وحضر إبليس معهم فى صورة شيخ نجدى ، وأشار كل واحد من القوم برأى :

فقال قائل منهم : نخرجه من أرضنا ، وننفيه إلى مكان قاص حتى

نستريح منه ، ولكن هذا الرأى لم يلق قبولا ، لأنهم يرون أنه إذا خرج التفَّ حوله الناس ، وتألفت به القلوب لما له من عذوبة فى الحديث وجمال فى المنطق .

فقال آخر : نوثقه ونحبسه حتى يموت كما مات من قبله من الشعراء .

ولكن هذا الرأى أيضا لم يصادف قبولا كذلك ، إذ أنهم يعلمون : إذا حبسوه فسوف يظهر أمره وتترامى أخباره لأصحابه وهنا يتواثبون عليهم ليخلِّصوه منهم ويغلبوهم .

ثم قال أبو جهل بن هشام : و «الله» إن لى فيكم رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد .

قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاما نهدا جلدا ثم نعطيه سيفا صارما فيضربونه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا يدرى بنو عبد مناف بعد ذلك ما تصنع ، وهنا وقع هذا القول من إبليس موقع القبول فيقول : «لله» در الفتى .

ولكن هذا المكر وتلك المؤامرة ما كانت لتخفى على رسول الله (ﷺ) ؛ فلقد أوحى «الله» إليه بما دبَّروه وأمره بالهجرة قال «الله» تعالى :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾[١]

ويمكننا إبراز الأسباب التى كانت من أجلها الهجرة ، وتلخيصها فيما يأتى :

أولا : الانتقال بالدعوة الإسلامية إلى بقعة خصبة تؤتى ثمارها وينتفع بها الناس .

ثانيا : شدة إيذاء المشركين للمسلمين ، خاصة بعد وفاة أبى طالب وخديجة .

ثالثا : إخلاص الأوس والخزرج لرسول الله (ﷺ) ؛ وقد ظهر ذلك من بيعتى العقبة الأولى والثانية .

رابعا : محاولة المشركين الغدر برسول الله (ﷺ) .

---

(١) الأنفال : ٣٠ .

هجرة رسول الله (ﷺ) وأبى بكر

لما دبر الأعداء مؤامرتهم ، وحاكوا فى الخفاء خيوطها ، أراد «الله» تعالى أن يحبط ظلمهم ويرد كيدهم فى نحورهم ، فأرسل جبريل (عليه السلام) إلى رسول الله (ﷺ) فأخبره الخبر ، وأمره ألاَّ ينام فى مضجعه تلك الليلة .

وهكذا تولَّى ربُّ العزة سبحانه رعايته لرسوله (ﷺ) ، وكشف له ربُّه كل ما دبروه من غدر ومكيدة ، وكل ما يسرون وما يعلنون :

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾(١)

ونام على (رضى الله عنه) مكان رسول الله (ﷺ) ؛ وقال له النبى (ﷺ) : «**لَنْ يَخْلُصَ إِلَيكَ شَىءٌ تَكْرَهُهُ**» وتسجى «على» ببردة رسول الله (ﷺ) ؛ فكان الأعداء إذا نظروا ، اعتقدوا أن رسول الله (ﷺ) لم يزل نائما ، حتى خرج من بينهم دون أن يشعروا به فقد أغشاهم «الله» :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا
وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾(٢)

---

(١) يس : ٧٦ .　　(٢) يس : ٩ .

وهكذا نجا «الله» تعالى رسوله (ﷺ) من كيد الكائدين

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾(١)

وانطلق رسول الله (ﷺ) بعد ذلك إلى أبى بكر الصديق (رضى الله تعالى عنه) ، فقال : «**إنَّ الله قَدْ أَذِنَ لِى فى الخُروج**» .

فقال أبو بكر : فخذ – بأبى أنت وأمى – إحدى راحلتى هاتين ، فقال (ﷺ) : **بالثَّمنِ** ، وكان أبو بكر (رضى الله عنه) قد اشتراهما بثمانمائة درهم ، فأخذ إحداهما وهى القصواء ، وهناك قال قائل القوم : **مَا تَنتظِرُون** ؟ قالوا : **محمدًا** ، قال : **خِبتُم وَخسِرتُم قد** – و«الله» – **مرَّ بِكُم وَذَرَّ عَلَى رُءوسِكُمُ التُّرابَ** . قالوا : و «الله» **مَا أَبصَرناهُ** .

وقاموا ينفضون التراب عن رءوسهم ، وهؤلاء هم : أبو جهل ، والحكم بن أبى العاص ، وعقبة بن أبى معيط ، والنضر بن الحارث ، وأمية بن خلف ، وابن الغيطلة ، وزمعة بن الأسود ، وطعيمة بن عدى وأبو لهب ، وأُبَىّ بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسألوا عليًّا عن الرسول (ﷺ) ، فقال : **لاَ علمَ لى بِه** .

ومضى الرسول (ﷺ) فى هجرته المباركة مودعا مكة الحبيبة ، بكلماته المرهفات :

---

(١) آل عمران : ٥٤ .

التى قالها - عند خروجه (ﷺ) من مكة المكرمة - وهو ينظر إلى البيت :

«و «الله» إِنَّكِ لأَحَبُّ أَرْضِ الله إِلَىَّ ، وَإِنَّكِ لأَحَبُّ أَرْضِ الله إلى «الله» ، وَلَوْلاَ أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِى مِنْكِ مَا خَرَجْتُ » وهذا الحديث رواه الزهرى عن أبى سلمة عن عبد الله بن عدى بن الحمراء يرفعه .

والبعض يقول : عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة وبهذا الحديث احتج من يفضل مكة على المدينة .. وكذلك حديث عبد الله بن الزبير - مرفوعا - أن الصلاة فى المسجد الحرام خير من مائة ألف صلاة فيما سواه .

فإذا كانت الأعمال تبعا للصلاة ، فكل حسنة تعمل فى الحرم فهى بمائة ألف حسنة .

وقد روى هذا من طريق ابن عباس عن رسول الله (ﷺ) قال :

« مَنْ حَجَّ مَاشِيًا كُتبَ لَهُ بِكلِّ خُطْوَة سَبْعُمِائَة حَسَنَة مِن حَسَنَاتِ الحرم ، قيل : وَمَا حَسَنَاتُ الحَرَمِ ؟ قال : الحَسَنَةُ فِيه بمائةِ ألفِ حَسَنَةٍ[١] » .

وقد أُذِنَ لرسول الله (ﷺ) بالهجرة ، بقول «الله» تعالى :

---

(١) رواه البزار .

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ (١)

قال الحسن والضحاك : المراد : دخوله المدينة المنورة ، وخروجه من مكة المكرمة ، وذلك حين أخرجه المشركون بعد أن تآمروا على قتله (صلوات الله وسلامه عليه) .

والرأى الآخر بمعنى : أدخلنى قبرى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق أى عند البعث . وذكر الحاكم أن خروجه (ﷺ) من مكة كان بعد بيعة العقبة بثلاثة أشهر ، أو قريبا منها .

وجزم ابن إسحاق بأنه خرج أول يوم من ربيع الأول وقدم المدينة المنورة لاثنتى عشرة خلت من ربيع الأول وقال عبد الله بن زيد ، وأبو هريرة (رضى الله عنهما) ، عن النبى (ﷺ) : « **لَوْلاَ الهِجرَةُ لَكُنْتُ امرَءًا مِنَ الأنْصَارِ** » وقال أبو موسى عن النبى (ﷺ) : « **رَأَيْتُ فِي المَنَامِ أَنِّى أُهَاجِرُ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نخْل ، فَذَهَبَ وَهَلِى**(٢) **إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أو هَجَر**(٣) **فَإِذَا هِىَ الْمَدِينَة يَثْرِب ، وَإِنَّمَا قَاَل** «يَثْرب» ؛ لأَنَّ ذلك كان قبل أن يسميها «**طيبة**» ، ومن

---

(١) **الإسراء** : ٨٠ . (٢) **وهلى** : أى ظنى .

(٣) **هَجَر** : بفتح الهاء والجيم بلد معروف من البحرين .

حديث صهيب : رفعه : « **أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُم سبَخَةً بَيْنَ ظَهْرَانَى حَرَّتين فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ هَجَر أَوْ يَثْرِب** »[١] .

ويعلم من هذا أن «الله» تعالى أطلع رسوله (ﷺ) على دار الهجرة ، وأراه إياها فى الرؤيا ، وفى هذا إشارة إلى منزلة الهجرة والمهاجرين ، ومكانة المدينة المنورة وفضلها عند «الله» تعالى .

حَدِيثُ الهِجْرَةِ كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ

قال الإمام البخارى رحمه «الله» تعالى : حدثنا يحيى بن بُكير قال حدثنا اللَّيث عن عُقيل ، قال ابن شهاب : فأخبرنى عروة بن الزبير (رضى الله عنه) ، أن عائشة (رضى الله عنها) زوج النبى (ﷺ) قالت : لم أعقل أبوىَّ قطُّ إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه الرسول (ﷺ) طَرَفى النهار بكرةً وعشية[٢] ، فلما ابتُلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة حتى بلغ بَرْكَ[٣] الغِماد فلقيه ابن الدَّغِنَّة وهو سيد القارة[٤] ، فقال : **أين تُرِيدُ يَا أَبَا بَكر** ؟ فقال أبو بكر : **أَخرَجَنِى قَومِى ، فَأُرِيدُ أن أَسيحَ فى الأرضِ وَأعبُدَ ربِّى** ، قال ابن الدغنّه : **فإن مثلك يا أبا بكر**

---

(١) رواه البيهقى . (٢) رواه البخارى .

(٣) **بَرْك** : بفتح الباء وسكون الراء والغِماد بكسر الغين : هو موضع على بعد خمس ليالٍ من مكة إلى جهة اليمن .

(٤) **القارة** : هى قبيلة مشهورة يضرب بهم المثل فى قوة الرمى .

لا يَخْرُجُ ولا يُخرَجُ إنك : تكِسبُ المعدُومَ ، وتَصِلُ الرَّحِمَ ، وتَحمِلُ الكَلَّ ، وتَقْرِى الضَّيفَ ، وتُعِينُ عَلَى نَوائِبِ الحقِّ ، فأنا لَكَ جَارٌ ، ارجِع واعبُد رَبَّكَ بِبَلَدِكَ .. فرجع وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية فى أشراف قريش ، فقال لهم : **إن أبا بكر لا يَخْرُج مثله ولا يُخرَج ، أتُخرجُون رجلاً يكسِبُ المعدومَ ، ويَصلُ الرَّحِمَ ، ويَحمِلُ الكَلَّ ويَقرِى الضَّيفَ ويُعينُ عَلَى نوائِبِ الحقِّ** ؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة : مُرْ أبا بكرٍ فَليَعبُد رَبَّه فى دَارِهِ ، فَليُصَلِّ فيها ، وَليقرَأ مَا شَاءَ وَلاَ يُؤذينا بذلك ولا يَستَعْلِنُ به ، فإنَّا نَخشَى أن يَفتِنَ نِسَاءَنَا وَأبنَاءَنَا .

فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر ، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره ، ولا يَستَعْلِن بصلاته ولا يقرأ فى غير داره ، ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجدا بفناء داره وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن ، فيتقذّف[١] عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه ، وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلا بكّاء[٢] ، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنّه ، فقدم عليهم فقالوا : إنّا كنا أَجَرْنا أبا بكر بجوارك على

---

(١) **يتقذف** : أى يزدحم من القذف وهو التدافع والسقوط ، وفى رواية .
تقصف : أى يزدحمون عليه حتى يسقط بعضهم على بعض فيكاد ينكسر .

(٢) **بكّاء** : أى كثير البكاء .

أن يعبد ربه فى داره ، فقد جاوز ذلك ، فابتنى مسجدا بفناء داره ، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانْهَهُ فإن أحبَّ أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن أَبَى إلا أن يُعلن بذلك فَسَلْهُ أن يرد عليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نُخفِرَك[١] ولَسْنَا مقرِّين لأبى بكر الاستعلان .. قالت عائشة : فأتى ابن الدَّغنة إلى أبى بكر ، فقال : قد علمتَ الذى عاقَدتُ لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن تُرجعَ إلَىَّ ذِمَّتِى ، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنّى أُخفرتُ فى رجل عقدتُ له . فقال أبو بكر : فإنى أردّ إليك جِوارك وأرضى بجوار «الله» عز وجل ، والنبى (ﷺ) يومئذ بمكة .

فقال النبى (ﷺ) للمسلمين : « **إنِّى أُرِيتُ دَارَ هِجرتِكُم ذاتَ نخلٍ بين لابَتَينِ وهُمَا الحرَّتانِ**[٢] » فهاجر من هاجر قِبَلَ المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهَّز أبو بكر قِبَلَ المدينة .

فقال له رسول الله (ﷺ) : «**عَلَى رِسلِكَ**[٣] ؛ **فإنِّى أَرجُو أن يُؤْذَنَ لى**» ، فقال أبو بكر : **وَهَل تَرجُو ذَلِكَ بِأَبِى أَنتَ** ؟ قال :

---

(١) **نخفرك** : أى نغدر بك .

(٢) **الحرَّة** : أرض حجارتها سود .

(٣) **على رِسْلك** : أى على مهلك .

«**نعم**» ، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله (ﷺ) ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده وَرَقَ السَّمُر وهو الخَبَطُ[١] أربعة أشهر .

قال ابن شهاب : قال عروة : قالت عائشة : فبينما نحن يوما جُلُوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة ، قال قائل لأبى بكر : هذا رسول الله (ﷺ) مُتَقَنِّعًا[٢] فى ساعة لم يكن يأتينا فيها فقال أبو بكر : **فِدًا لَهُ أَبِى وَأُمِّى ، و «الله» مَا جَاءَ به فى هَذِهِ السَّاعَةِ إلاَّ أَمرٌ** ، قالت: فجاء رسول الله (ﷺ) ، فاستأذن ، فأذن له فدخل ، فقال النبى (ﷺ) لأبى بكر : «**أَخرِجْ مَنْ عِندَكَ**» ، فقال أبو بكر : **إنّما هُم أَهلُكَ - بأبى أنت يا رسول الله -** ، قال (ﷺ) : «**فَإِنِّى قَدْ أُذِنَ لِى فى الخُروج**» فقال أبو بكر : **الصحابة بِأَبِى أنتَ يَا رَسُول الله؟** قال رسول الله (ﷺ) : «**نعم**» ، قال أبو بكر : **فَخُذ - بِأَبِى أَنْتَ يَا رَسُولَ الله - إِحدَى رَاحِلَتَّى هَاتَين** ، قال رسول الله (ﷺ) : «**بالثَّمَن**» . قالت عائشة : فجهزناهما أحثَّ[٣] الجهاز ، وصنعنا لهم سُفْرة[٤] فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها[٥] فربطت به على فم الجراب - فبذلك سميت ذات النطاقين - وفى رواية ذات النطاقين .

---

(١) يقال عن «السمر» شجرة أم الغيلان وقيل : كل ماله ظل ثخين وقيل : ورق الطلح ، **والخبط** : هو ما يخبط بالعصا فيسقط من ورق الشجر . (٢) **متقنعا** : أى مغطيا رأسه .

(٣) **أحث** : أسرع .

(٤) أى زاد **وأصلها فى اللغة** : الزاد الذى يجهز للمسافر ثم استعمل فى الوعاء الذى يحمل فيه . (٥) **النطاق** : ما يشد به الوسط .

قالت : ثم لحق رسول الله (ﷺ) وأبو بكر بغار فى جبل ثَوْر، فكمنا فيه ثلاث ليالٍ يبيت عندهما فى الغار عبد الله بن أبى بكر وهو غلام شاب ثَقِف[١] لَقِن[٢] فيدلج[٣] من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمرا يكتادان به حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر مِنْحَةً من غنم فَيُرِيحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان فى رِسْلٍ[٤] وهو لبن مِنْحَتِهما ورَضِيفهما[٥] حتى يَنْعِقَ[٦] بها عامر ابن فُهيرة بغلس يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث ، واستأجر رسول الله (ﷺ) وأبو بكر رجلا من بنى الديل وهو من بنى عَبْد بن عدىّ هاديا خرِّيتا[٧] بالهداية قد غمس حلفا فى آل العاص بن وائل السهمى وهو على دين كفار قريش فأمِناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غارَ ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبحَ ثلاث وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل[٨] أ.هـ .

---

(١) **ثقف** : أى حاذق . (٢) **لقن** : سريع الفهم . (٣) **يدلج** : يخرج بسحر .
(٤) **الرِّسل** : اللبن الطرى . (٥) **رضيف** : وهو اللبن المرضوف يوضع فيه الحجارة المحماة بالشمس أو النار وتزول رخاوته . (٦) **ينعق** : يصيح . (٧) **الخريت** : الماهر .
(٨) **رواه البخارى فى صحيحه** .

فـــى الـغـــــار

خرج رسول الله (ﷺ) وأبو بكر إلى غار ثور ، ويقع جنوب مكة على بعد حوالى خمسة كيلو مترات ، وأدرك كفار قريش أنه فر من مكة ، فأعلنوا عن جائزة ثمينة قدرها مائة ناقة لمن يأتى به حيًّا أو ميتًا ، وتسابق الشبان من المشركين ، وألقت قريش بأقوى فتيانها بحثًا فى الطريق من مكة إلى المدينة ، كلٌّ يحاول الظفر بالجائزة ، حتى وصل بعضهم إلى الغار ، وأصبحوا بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأى الرسول (ﷺ) وصاحبه أبا بكر (رضى الله عنه) .

ولكن العناية الإلٰهية قامت بدورها الخارق للعادة ، وظهرت من المعجزات فى هذه الآونة ما يجعل العقل البشرى يسجد أمام عظمة الخالق البارىء سبحانه وتعالى .. ولقد ضربت العنكبوت على باب الغار ، ونسجت خيوطها وأقامت عُشَّها ، فلما وصلوا إليه . قال بعضهم: إن عليه العنكبوت قبل ميلاد محمد ، فانصرفوا قال ابن سعد فى طبقاته الكبرى : أخبرنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا عون بن عمرو القيسى أخو رياح القيسى ، حدثنا أبو مصعب المكى قال : أدركت زيد بن أرقم وأنس بن مالك والمغيرة بن شعبة فسمعتهم يتحدثون أن النبى (ﷺ) ليلة الغار ، أمر «الله» شجرة فنبتت فى وجهه فسترته ، وأمر «الله» العنكبوت فنسجت على وجهه فسترته ، وأمر

«الله» حمامتين وحشيتين فوقعتا بفم الغار ، وأقبل فتيان قريش ، من كل بطن رجلٌ ؛ بأسيافهم وعصيهم وهراواتهم حتى إذا كانوا من النبى (ﷺ) قدر أربعين ذراعا نظر أولهم فرأى الحمامتين فرجع ، فقال له أصحابه : مالك لم تنظر فى الغار ، قال : رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد ، قال : فسمع النبى (ﷺ) قوله فعرف أن «الله» قد درأ عنه بهما ، وكانت لأبى بكر منيحة غنم يرعاها عامر بن فهيرة ، وكان يأتيهم بها ليلا ، فيحتلبون ، فإذا كان سحر؛ سرح مع الناس ، قالت عائشة : وجهزناهما أحثَّ الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به الجراب ، وقطعت أخرى فصيرته عصاما لفم القربة، فبذلك سُمِّيت ذات النطاقين. (أ.هـ . طبقات ابن سعد)

وهكذا مكث رسول الله (ﷺ) هو وصاحبه ثلاث ليال فى الغار ، كان يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر ، وخرج من الغار ليلة الإثنين ، لأربع ليال خلون من شهر ربيع الأول ، وقد صور العارف بالله الشيخ البوصيرى - رحمه الله - لقاء الغار بقوله :

فالصِّدقُ فِى الغَارِ والصِّدِّيقُ لم يَرِمَا[١]

وهـم يَقُولُـونَ : مَا بالغَـارِ مِـن أَرِمِ[٢]

---

(١) بكسر الراء : أى لم يبرحا .

(٢) بفتح الهمزة وكسر الراء : بمعنى أحد .

ظَنُّوا الحَمَامَ وظَنُّوا العَنْكَبُوتَ عَلَى
خَيرِ البَرِيَّةِ لم تَنْسِج ، وَلَم تَحُمِ
وقَايَةُ « الله » أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةٍ
مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الأُطُمِ (١)

فِى الطَرِيقِ إلَى المَدِينَةِ

استأجر الصديق (رضى الله تعالى عنه) دليلا هو عبد الله بن أريقط ، ورغم أنه كان على دين الكفر إلا أنهما أمناه ، ومعهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، وفى طريقهم مرُّوا بخيمتى أم معبد الخزاعية ، وكانت تقعد بفناء الخيمة ، تسقى الناس وتطعمهم ، فسألوا ليشتروا منها تمرًا أو لحمًا ، فلم يجدوا عندها شيئًا وقالت لهم : و « الله » لو كان عندنا شىء ما أعوزكما القرى ، فنظر رسول الله (ﷺ) إلى شاة فى كسر الخيمة ، فقال : «**مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمَّ معبد؟**» قالت : هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : «**هَل بِهَا مِن لَبَن ؟**».

قالت : هى أجهد من ذلك .

قال : «**أَتَأْذَنِينَ لِى أَن أَحلِبَهَا ؟**».

قالت : نعم ، بأبى أنت وأمى ، إن رأيت بها حلبًا ؛ فدعا رسول

(١) بضم الهمزة والطاء : هى الحصون .

الله (ﷺ) بالشاة فمسح ضرعها ، وذكر اسم «الله» ، وقال : «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهَا فِى شَاتِهَا**» . وهنا ظهرت معجزاته (صلوات الله وسلامه عليه) ، فإذا بالضرع يمتلئ لبنًا ، ويدر الكثير ؛ فدعا بإناء لها يكفى الرهط فحلب فيه ، فسقاها فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا وشرب (ﷺ) آخرهم ، ثم حلب فيه ثانيا ، وغادره عندها ..

وقد أخذوا طريقهم بعد ذلك فى الرحلة ، ولما جاء زوجها أبو معبد ورأى اللبن عجب ، وقال : من أين لكم هذا والشاة عازبة ولا حلوبة فى البيت ؟

قالت : لا و «الله» ، إلا أنه مَرَّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ، قال : و «الله» إنى لأراه صاحب قريش الذى يطلب .

صِفِيهِ لى يا أم معبد .

قالت : **رأيتُ رجلاً ظاهرَ الوضاءَةِ مُتبلِّجَ الوجهِ حَسَنَ الخلقِ** ... وظلت تصفه إلى أن قالت : **فَهُوَ أَنْضَرُ الثلاثةِ مَنْظَرًا ، وَأَحْسَنُهم قدْرًا ، له رُفَقَاءُ يحفُّون به ، إذا قال استمعوا لقولِهِ ؛ وإن أمرَ تبادَرُوا إلى أمرِهِ ..**

قال : هذا و «الله» صاحب قريش الذى ذُكِرَ لنا من أمره ما ذُكر ؛ ولو كنت وافقته يا أم معبد لالتمست أن أصحبه ، ولأفعلنَّ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن وجدت إلى ذلك سبيلا ، وأصبح صوت بمكة عاليا بين السماء والأرض يسمعونه ولا يرون صاحبه ، ينادى قائلا :

جَزَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ
رَفِيقَيْنِ حَلاَّ خَيْمَتَىْ أُمِّ مَعْبَدِ
هُمَا نَزَلا بِالبِرِّ وَارْتَحَلاَ بِهِ
فَأَفْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ
فَيَالَقُصِىٍّ مَا زَوَى « الله » عَنْكُمُ
بِهِ مِنْ فِعَالٍ لا يُجَازَى وَسُؤْدُدِ
سَلُوا أُخْتَكُم عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا
فَإِنَّكُمُ إِن تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ
دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلَّبَتْ
لَهُ بِصَرِيحٍ ضُرَّةَ الشَّاةِ مُزْبِدِ
فَغَادَرَهُ رَهْنًا لَدَيْهَا لِحَالِبٍ
تُدِرُّ بِهَا فِى مَصْدَرٍ ثُمَّ مَوْرِدِ

وقد أجاب حسان بن ثابت على هذا بقوله :

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ زَالَ عَنْهُمْ نَبِيُّهم
وقدس مَنْ يَسْرِى إليهم ويَغْتَدِى
تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَزَالَتْ عُقُولُهم
وحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجَدَّدِ

وهَلْ يَسْتَوى ضَلالُ قَوْمٍ تَسَلَّعُوا
عَمًى وَهُدَاة يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدِ
نَبِيٌّ يَرَى مَا لاَ يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ
وَيَتْلُو كِتَابَ اللهِ فِي كُلِّ مَشْهَدِ
فَإنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةَ غَائِبٍ
فَتَصْدِيقُهَا فِي ضَحْوَةِ اليَومِ أو غَدِ
لِتَهْنَ أبَا بَكْرٍ سَعَادَةَ جَدِه
بِصُحْبَتِهِ ، مَنْ يُسْعِد «الله» يَسْعَدِ
ويَهْن بَنِى كَعْبٍ مَكَانُ فَتَاتِهِم
وَمَقْعَدُهَا لِلمُسْلِمِينَ بِمَرصَدِ

وهذا الموقف مع أم معبد يعطينا صورة واضحة لما كانت عليه هذه الرحلة من عناية وتوفيق ، كما يوضح لنا أن الرعاية الإلهية قد حرست خطى الرسول (ﷺ) فى حله وترحاله ، وأن تلك المعجزة التى جرى اللبن بها على يديه ، إنما تدل على أن الخير قد انهمر من لا شئ ، وعن قريب سينهمر بصورة أكبر ، وينتشر النور بصورة أوسع ، وتعم الهداية كل الناس ، وتتحول الجهالة إلى علم والضلالة إلى هدى ، ويجىء نصر «الله» والفتح ويدخل الناس فى دين الله أفواجًا .

وها هم أولاء فى رحلتهم المباركة يعرض لهم سراقة بن مالك بن

جعشم على فرس له ، فدعا عليه رسول الله (ﷺ) ، فساخت فرسه فقال : يا هذان ادعوا لى الله ولكما ألاَّ أعود ، فدعوا الله ، فعاد فساخت ، فقال : ادعوا لى الله ألاَّ أعود ، قال : عرض عليهما الزاد ، فقالا : اكفنا نفسك ، فقال : قد كفيتكماها ..

وهذه معجزة أخرى ، تردُّ كلَّ من قصد الرسول (ﷺ) بشرٍّ ، وتحيط كيد أعدائه ، وترد كل فتيانهم المتسابقين على الشر ؛ تردهم بالخزى والعار ، فلا يستطيعون أن يلحقوا به فى رحلته وهجرته .

وقد تجلَّى وفاء أبى بكر للرسول (ﷺ) وحرصه على سلامته إذ كان يسبق الرسولَ (ﷺ) فى الدخول إلى الغار ليطمئن على سلامته من الهوام والحشرات ، ثم ينادى رسولَ الله (ﷺ) بعد ذلك ، كما كان يدفعه أيضا أثناء المسير ، حيث يسبقه مرة ويلحقه أخرى ، وعندما سأله رسول الله (ﷺ) عن ذلك قال :

يا رسولَ الله أذكر الترصُّد فأسبقك ، وأذكر الطلب فأتبعك .

الفهـــرس

رقم الإيداع ٢٩٥١ / ٩٤

الترقيم الدولى I.S.B.N 977-14-0191-2





فى هذا الكتاب

دراسة تحليلية فى ضوء الكتاب والسنة لأشرف سيرة فى الوجود إنها السيرة النبوية العطرة ويتناول هذا الكتاب العهد المكى ويتبعه بمشيئة الله تعالى دراسة أخرى للعهد المدنى وتتميز هذه الدراسات بتوثيق الروايات واستنباط الحكم والدروس .

والله ولى التوفيق

